في
التنوير الإسلامي

« ٢٨ »

الأقليات الدينية والقومية
تنوع ووحدة ؟ .. أم تفتيت واختراق ؟؟

تأليف :
د . محمد عمارة





في التنوير الإسلامي ٢٨

الأقليات الدينية والقومية
تنوع ووحدة ؟.. أم تفتيت واختراق ؟؟

تأليف :
د . محمد عمارة





اسم الكتاب: الأقليات الدينية والقومية

تنوع ووحدة ؟ .. أم تفتيت واختراق ؟؟

اسم المؤلف: د / محمد عمارة

تاريخ النشر: ديسمبر ١٩٩٨م . (طبعة أولى)

رقم الإيداع: ١٦٧٤٥ / ١٩٩٨م .

الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 0889 - 5

الناشر: دار **نهضة مصر** للطباعة والنشر والتوزيع .

المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة ،

مدينة السادس من أكتوبر ،

ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط)

فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥

فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة

إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤

فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ [الروم: ٢٢]

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [المائدة: ٤٨]

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ [آل عمران: ٦٤]

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة: ٦٢]

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون (٩) ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]

● « إنه من الحق أن نقول :

إن غير المسلمين قد نعموا - بوجه الإجمال - فى ظل الحكم الإسلامى ، بدرجة من التسامح لا نجد معادلا لها فى أوربا قبل الأزمنة الحديثة . وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدى المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية ، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح . . »

المستشرق الإنجليزى : سير توماس أرنولد - فى كتاب (الدعوة إلى الإسلام) ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ .

● «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام !!»

المستشرق الألمانى آدم متز - فى كتاب (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) جـ ١ ص ١٠٥ - . .

● « إن فترات التوتر أو الاضطهاد لغير المسلمين كانت قصيرة . . ويحكمها ثلاثة عوامل :

الأول : هو المزاج الشخصى للخلفاء . .

والثانى : هو تردى الأوضاع الاقتصادية لسواد المسلمين ، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين الشاغلين لمناصب إدارية عالية . .

والثالث : مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلدان الإسلامية ، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة . . »الكاتب المسيحى اللبنانى جورج قرم - فى كتاب (تعدد الأديان ونظم الحكم) ص ٢١١ - ٢٢٤ - . .

أرقام

إن «لغة الأرقام» هى أبلغ اللغات فى نقض الأباطيل والأوهام . .

فالأرقام لا تعرف الأهواء ولا المذاهب ولا «الأيديولوجيات» . . فما بالنا إذا كانت مصادر هذه الأرقام غير مسلمة . . والمسلمة منها علمانية ، تناصب التوجه الإسلامى شديد العداء . . إنها ، عندئذ ، تحتل فى المصداقية الدرجات الأعلى ، لأنها من نوع : (وشهد شاهد من أهلها) ! . .

وهذه الأرقام تقول :

● إن تعداد الوطن العربى - من المحيط إلى الخليج - هو ٢٣٥ مليونا . .

● وإن فى الأمة العربية تنوعا لغويا (قوميا) . . وتنوعا دينيا . . ففيها المسلمون الأمازيغ - (البربر) وتعدادهم يبلغ أربعة عشر مليونا . . وفيها المسلمون الأكراد ، وتعدادهم يبلغ أربعة ملايين ونصف المليون . .

وفيها العرب النصارى ، الذين تتوزعهم ثلاث عشرة طائفة ، يبلغ مجموعها سبعة ملايين ونصف المليون . . ونصف هؤلاء النصارى العرب - تقريبا - يعيشون فى مصر - أكثر قليلا من ثلاثة ملايين ، يمثلون ٥,٩ ٪ من سكان مصر ، الذين يبلغ تعدادهم ستين مليونا . .

● ولأن البعض يشكك فى بعض هذه الأرقام الرسمية - وخاصة فى تعداد أقباط مصر- ويذهب فى التقديرات الجزافية -بل والخرافية- إلى حد الزعم بأن أقباط مصر هم خمسة عشر مليونا - أى ضعف كل نصارى العالم العربى ، من المحيط إلى الخليج!! - فإن أصحاب (أطلس معلومات العالم العربى) - وأحدهما كاثوليكى مارونى ، والثانى كاثوليكى فرنسى- يستغربان التشكيك فى تعداد أقباط مصر ، فيقولان :

« . . ولكننا نلاحظ أن التعدادات التى أجريت فى عهد الاستعمار تؤكد هذه الأرقام الرسمية ، ونلاحظ تناقصا طفيفا فى نسبة عدد الأقباط ، كما يتبين من التعدادات المتتالية :

إذ كانت نسبة الأقباط أعلى قليلا من ٨٪ من العدد الكلى لسكان مصر فيما بين عامى ١٩٠٧ م و ١٩٣٧ م ، ثم هبطت النسبة إلى ٧,٩٪ فى تعداد سنة ١٩٤٧ ، وإلى ٧,٣٪ فى سنة ١٩٦٠ م ، و ٥,٩٪ فى سنة ١٩٨٦ م .

وليس هناك أى استثناء فى هذا المنحنى الهابط بانتظام ، مما يوحى بأنه ليس هناك افتعال فى هذه الظاهرة» . (أطلس معلومات العالم العربى) ص ٣١ ، ٣٢ طبعة دار المستقبل العربى - القاهرة سنة ١٩٩٤ م - .

● وهناك سببان لهبوط نسبة عدد النصارى فى مصر - وفى الشرق العربى عموما - :

أولهما : أن هجرتهم إلى خارج الوطن أعلى من هجرة

المسلمين . . ولقد زادت هذه الهجرات منذ خمسينيات القرن العشرين ، بعد قوانين الإصلاح الزراعى ، والتمصير والتأميم للاقتصاد المصرى ، وتحرير هذا الاقتصاد من النفوذ الأجنبى .

وثانيهما : أن نسبة المواليد بين الأقباط هى أدنى منها لدى المسلمين . . فمتوسط مواليد المرأة المسلمة - ما بين عامى ١٩٥٧م و ١٩٨٧ - وهى الفترة التى هبطت فيها نسبة الأقباط - . . هذا المتوسط صعد - لدى المرأة المسلمة - من ثمانية أطفال إلى تسعة ، ثم أخذ فى الهبوط حتى وصل إلى خمسة أطفال . . بينما هذا المتوسط قد هبط - فى ذات الفترة - عند المرأة النصرانية - من أقل من خمسة أطفال إلى أقل من ثلاثة أطفال- أى أن نسبة المواليد بين المسلمين تقترب من ضعفها لدى النصارى - (المصدر السابق . ص ٣٣)- .

تلك هى أرقام التعداد للنفوس . .

● أما عدد الكنائس - فى مصر - والذى يدور حوله هو الآخر لغط كثير - فهو - وفق إحصاء سنة ١٩٩٦ م - ٢,٤٠٠ كنيسة . . أى أن هناك كنيسة لكل ١٢٥٠ مواطن مسيحى - (صحيفة «الدستور» عدد ١٨ يونيو سنة ١٩٩٧ م) - . .

وهى نسبة تكاد تكون مساوية لنسبة المسلمين - فى مصر - إلى مساجدها . . فهناك مسجد لكل ١٢٢٧ مواطنا مسلما . . - (أنور محمد «السادات والبابا» ص ٢٠٢ طبعة القاهرة) .

● أما الوزن الاقتصادى والاجتماعى لأقباط مصر ، فإنه يبلغ أكثر من خمسة أضعاف نسبتهم العددية !!

فنسبتهم العددية هى أقل من ٦٪ من السكان ، بينما يملكون أكثر من ربع ثروة مصر !! . . يملكون ويمثلون :

- ٢٢,٥٪ من الشركات التى تأسست بين عامى ١٩٧٤ م و ١٩٩٥م . .
- و ٢٠٪ من شركات المقاولات فى مصر . .
- و ٥٠٪ من المكاتب الاستشارية . .
- و ٦٠٪ من الصيدليات . .
- و ٤٥٪ من العيادات الطبية الخاصة . .
- و ٣٥٪ من عضوية غرفة التجارة الأمريكية . . وغرفة التجارة الألمانية . .
- و ٦٠٪ من عضوية غرفة التجارة الفرنسية (منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين) .
- و ٢٠٪ من رجال الأعمال المصريين . .
- وأكثر من ٢٠٪ من المستثمرين فى مدينتى السادات والعاشر من رمضان . .
- و ٢٥٪ من المهن الممتازة - الصيادلة والأطباء والمهندسين والمحامين . . والصحفيين والبيطريين . .

أى أن الـ ٥,٩٪ من السكان - الأقباط - يملكون ما يتراوح بين ٣٥٪ و ٤٠٪ من ثروة مصر وامتيازاتها !! . . - (تقرير «روز اليوسف» ، و «اتحاد المهن الطبية» ، و «اتحاد المقاولين» ،

و «مجلة المختار الإسلامى» عدد ١٥ ربيع الأول سنة ١٤١٩ هـ يوليو سنة ١٩٩٨ م) - .

هذا عن الوزن فى الثروة والوجاهة والامتيازات . .

● فإذا علمنا أن أقباط مصر لايعانون من أى من المشكلات والهموم الكبرى التى تطحن سواد الشعب المصرى - مشكلات وهموم : الأمية . . والبطالة . . وسكنى المقابر والعشوائيات . . إلخ - أدركنا أن «الهموم» فى مصر هى من نصيب المسلمين ، وليس من نصيب الأقباط . . وتذكرنا كلمة شيخنا محمد الغزالى -عليه رحمة الله- :

«إن أقباط مصر هم أسعد أقلية فى هذا العالم الذى نعيش فيه» !

التعددية : ثمرة إسلامية

لا نغالى إذا قلنا إن «التعددية» هى ثمرة إسلامية ارتبطت برسالة الإسلام وتجسدت فى حضارته . . لأن التعددية هى معيار ارتقاء الإنسان ، عندما يقبل الآخر فيتعايش معه ، وعندما ينضج فيبصر ، إلى جانب عوامل وسمات الاختلاف ، عوامل وسمات الوحدة والاتفاق ، وعندما يبلغ به النضج الحد الذى يرى فيه ضرورة الاختلاف ، كالاتفاق ، لأن التنوع والتعدد زينة للحياة وإغناء للأحياء ، فهو - كالاتفاق- فطرة إنسانية ، وضرورة من ضرورات الحياة ! . .

ولأن هذا الطور من فكر البشر هو طور النضوج ، ولأن الإسلام قد ختم رسالات السماء إلى الإنسان عندما بلغت الإنسانية سن الرشد فلقد ارتبطت التعددية بشريعة الإسلام وأمته وحضارته . .

فقبل الإسلام ، وحتى فى بلاد كمصر ، اشتهرت بالتسامح والانفتاح الحضارى والتعايش مع الآخرين والتأثر بهم ، وجدنا الديانة التوحيدية لـ «أخناتون» (١٣٦٩ - ١٣٥٣ ق . م) تدمر معابد «أمون» ، وتضطهد كهنتها وتطارد أتباعها فى كل مكان . . فلما انتصرت «الأمونية» على «الأخناتونية» بادلتها اضطهاداً باضطهاد ، حتى اجتثتها وطوت صفحتها من الوجود . .

وعندما دخلت النصرانية إلى مصر ، شن أقباطها النصارى حملة إبادة ضد ديانتها القديمة ، فهدموا معابدها ، ودمروا هياكلها ، وأحرقوا مكتباتها ، وسحلوا كهنتها وفلاسفتها ! . .

وكذلك صنعت مصر - الدولة الرومانية الوثنية- بنصارى الأقباط المصريين . . بل لقد استمر الاضطهاد لهم حتى بعد تدين الدولة الرومانية بالنصرانية ، ذلك أن اختلاف المذهب -داخل النصرانية - كان مصدر اضطهاد وإبادة من الملكانيين البيزنطيين لليعاقبة المصريين . . حتى ليؤرخ نصارى مصر حتى اليوم بعصر شهدائهم ، الذين استشهدوا على يد نصارى مثلهم لمجرد الاختلاف في المذهب! . . فلم يسع مذهب مذهباً آخر حتى داخل الدين الواحد ! . .

بل لقد صنع المصريون النصارى ذلك الاضطهاد مع بعضهم البعض ؛ فاضطهدت الأرثوذكسية - التي شكل اثناسيوس (٢٩٥ - ٣٧٣ م) مذهبها - اضطهدت «الآريوسية» الموحدة - نسبة إلى «آريوس» arius (٢٨٠ - ٣٣٦م) - وطاردت أنصارها ، حتى أزالتها من الوجود ! . .

فكان تاريخ الدين والتدين خالياً من سماحة التنوع ورحابة صدر التعددية ، حتى ارتفعت في مصر رايات الإسلام ، فأعلن عمرو بن العاص (٥٠ ق . هـ ٤٣ هـ ٥٧٤ - ٦٦٤م) الأمان الديني لكل المتدينين ، وأمّن المضطهدين من قبط مصر ، فعاد الهاربون في الصحارى والمغارات ، ورد إليهم الإسلام الحق في حرية الاختيار للدين وللمذهب ، بل ورد إليهم كنائسهم المغتصبة ، فكان الإسلام أول دين يؤسس ويحرر دور العبادة للمخالفين ! . . وكان قرآنه أول كتاب دين لايتحدث عن الحفاظ على المساجد وحدها بل يضع ترتيبها - وفق التاريخ - في نهاية دور عبادة الملل والشرائع ﴿ ولولا دفعُ الله الناس

بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾[1].

هذا عن مصر، التى يضرب المثل بشعبها فى التسامح الدينى والتعايش بين المختلفين . .

وفى الغرب الرومانى، والولايات الشرقية الرومانية، كان « الاستفراد» ، ورفض التعددية منهاجاً متبعاً . . فالوثنية الرومانية تضطهد النصارى، وتلقى بهم أحياء إلى الأسود طعاماً ! . . وعندما تديّن الرومان بالنصرانية صنعوا نفس الاضطهاد مع الوثنيين! . . بل ومع النصارى الذين اختلفوا معهم فى المذهب! . . وفى كل عهودهم- الوثنية . . والنصرانية- مارسوا الاضطهاد مع اليهود، إبادة وتهجيراً، وهدماً للمعابد، وتحويل أماكنها إلى مجمعات للنفايات والقاذورات ! . .

ولقد استمر هذا الإكراه والقهر فى ربوع الحضارة الغربية، وامتداداتها، طوال تاريخها، سُنّة سيئة مرعية ومتبعة إلى حد كبير . . ويكفى أن نطالع مرجعاً علمياً واحداً، كتبه مستشرق منصف، هو «سير توماس . و . أرنولد» (١٨٦٤ - ١٩٣٠م) لنرى هذه القسمة والخصوصية الحضارية الغربية، تقابلها وتناقضها سماحة الإسلام - المؤسسة على التعددية - إزاء الديانات الأخرى ومعتنقيها . .

---

(١) الحج : ٤٠ .

فشارلمان (٧٤٢ - ٨١٤م) فرض النصرانية على السكسونيين بحد السيف . . وفى الدانمرك استأصل الملك كنوت tune الديانات غير المسيحية من بلاده بالقوة والإرهاب . . وفى بروسيا فرضت جماعة إخوان السيف bmetheren of the sward المسيحية على الناس بالسيف والنار . . وفى ليفونيا ، فرض فرسان drdo fatrumm militine christ النصرانية على الشعب فرضاً . . وفى جنوب النرويج ، ذبح الملك أولاف ترايجفيسون كل من أبى اعتناق المسيحية ، أو قطع أيديهم وأرجلهم ونفاهم وشردهم ، حتى انفردت النصرانية بالبلاد . . وفى روسيا فرض فلاديمير vladimir عام ٩٨٨م النصرانية على كل الروس ، سادة وعبيداً ، أغنياء وفقراء ، غداة اعتناقه لها ! . . ولم يُعترف فيها بإمكانية تعدد الأديان إلا فى مرسوم صدر عام ١٩٠٥ م ! . . وفى الجبل الأسود - بالبلقان - قاد الأسقف الحاكم دانيال بتروفتش d. petrovich عملية ذبح غير المسيحيين - بمن فيهم من المسلمين - ليلة عيد الميلاد عام ١٧٠٣ ! . . وفى المجر ، أرغم الملك شارل روبرت غير المسيحيين على التنصر أو النفى من البلاد عام ١٣٤٠م . . وفى أسبانيا- قبل الفتح العربى- كان المجمع السادس ، فى طليطلة ، قد حرم كل المذاهب غير المذهب الكاثوليكى ، وأقسم الملوك على تنفيذ هذا القانون بالقوة»!

وحينما امتد نفوذ ونهج الحضارة الغربية هذا ، شهد التاريخ هذا القهر والاضطهاد والإكراه . . فاليعاقبة ، فى مصر والشرق ،

اضطهدهم الأرثوذكس الملكانيون، بالقتل والنفى والتشريد.. وقتل جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥م) مائتى ألف من القبط فى مدينة الاسكندرية وحدها، حتى اضطر من نجا من القتل إلى الهرب فى الصحراء.. وفى أنطاكية حدث نفس القهر والاضطهاد لغير المسيحيين، ولمعتنقى غير مذهب الدولة الرومانية من المسيحيين!.. وفى الحبشة، قضى الملك سيف أرعد (١٣٤٢- ١٣٧٠م) بإعدام كل من أبى الدخول فى المسيحية، أو بنفيهم من البلاد.. وصنع ذلك الملك جون فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى!.. ناهيك عن مأساة مسلمى الأندلس على يد فرديناند وإيزابيلا!..

لقد سنت الحضارة الغربية سنة الإكراه فى الدين، واتخذت القهر - فى أبشع صوره - سبيلاً لانفراد المسيحية بساحة التدين؛ بل وانفراد مذهب واحد من مذاهبها بعقائد الذين أكرهوا على «الإيمان»!.. وكان شعارها كلمات «الوصية» المنسوبة إلى القديس لويس (١٢١٤ - ١٢٧٠م) والتى تقوم: «عندما يسمع الرجل العامى أن الشريعة المسيحية قد أسىء إلى سمعتها فإنه ينبغى ألا يزود عن تلك الشريعة إلا بسيفه، الذى يجب أن يطعن به الكافر فى أحشائه طعنة نجلاء»[1]!..

فنحن، إذن، أمام «خصوصية غربية»، اعتمدت سبل القهر والإكراه

---

(١) أرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص ٣٠ - ٣٢ - ٧٢ - ١٢٢ - ١٢٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٥٤ - ١٥٦ - ٢٢٦ - ٢٣٠ - ٢٧٤ - ٢٧٦ -. ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

لتوحيد المعتقد والمذهب الدينى ، حتى لقد خلت مواطنها المسيحية من الأقليات الدينية ، التى هى شهادة التسامح والتعايش بين الديانات . .

فالاستفراد الدينى - بل والمذهبى - كان هو المنهج السائد . . ولم تعرف التعددية طريقها إلى تلك المجتمعات ، إلا بعد أن تعلمتها من «نظام الملل» العثمانى ، فى العصر الحديث ! . .

أما الإسلام ، فمنذ أن ارتفعت راياته على هذه الولايات ، وجدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ومعه صحابة رسول الله ﷺ ، عندما دخل القدس (١٥ هـ ٦٣٦ م) وعقد لأهلها «العهد العمرى» الذى قنن حرية التدين ، وحق الاختيار الدينى ، ونهج التعددية . . وجدناهم يفرشون أرديتهم ويحملون عليها النفايات والقاذورات التى وضعها الرومان فى مواطن العبادة ، ويعيدون لها طهرها وقدسيتها ، بل ويتتبعون هذه الأماكن التى سبق وعُبد فيها الله ، وفق مختلف الشرائع ، فيقيمون فوقها المساجد والمحاريب التى تتلى فيها آيات الله ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[٢] ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[٣] ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٤] ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[٥] . .

---

(٢) البقرة : ٢٨٥ . (٣) البقرة : ٢٥٦ .

(٤) الكهف : ٢٩ . (٥) الكافرون : ٦ .

فبالإسلام ، بدأ فجر التعددية فى تاريخ الإنسان . . لأنه الشريعة التى علقت إيمان المؤمن بها على الإيمان بكل الرسل والرسالات ! . . ولم يقف الإسلام بالتعددية والتنوع والاختلاف عند حدود «الحق الإنسانى» - الذى يجوز التنازل عنه ! . . وإنما ارتفع بها إلى مقام السنة الإلهية والقانون الربانى الذى لا تبديل له ولا تحويل . . فهى القاعدة والسنة الكونية والنهج الحضارى الذى أراده الله . . ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[1] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾[2] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[3] وصدق الحديث النبوى على هذه الآيات القرآنية : فـ «الأنبياء إخوة لعَلاَّت - (أمهات متعددات) - دينهم واحد ، وأمهاتهم شتى»[4] .

وقننها الدستور الأول للدولة الإسلامية الأولى : « . . وأن يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وبينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم»[5] .

---

(١) المائدة : ٤٨ .　　(٢) الروم : ٢٢ .　　(٣) الحجرات ١٣ .

(٤) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد .

(٥) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ١٩ ، ٢٠ . جمع وتحقيق : د . محمد حميد الله . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

وجسدتها الحضارة الإسلامية واقعاً معيشاً . . فعاشت وتعايشت ، وشاركت فى الإبداع الحضارى كل ألوان التنوع والتعددية . .

ففى الإطار الإسلامى الأوسع عاشت التمايزات القومية ، تحدد اللغات دوائرها . . وتعايشت التمايزات الدينية- سماوية ووضعية - تحدد الشرائع دوائرها وانتماءاتها . .

وفى الإطار العربى الإسلامى وجدنا ونجد خارطة التعددية فى الأقوام ، يتجاور فيها -مع العرب- : الأكراد والبربر ، والأرمن والآراميون ، والسوريان والتركمان ، والشركس ، والأتراك ، والإيرانيون ، والنوبيون ، والزنوج واليهود الغربيون . . إلخ . .

وعلى خارطة التعددية فى الملل والشرائع والمذاهب الدينية ، وجدنا ونجد : اليونان ، الروم ، الأرثوذكس ، والنساطرة الأشوريون ، والأقباط الأرثوذكس ، واليعاقبة الأرثوذكس ، والأرمن الأرثوذكس ، واليونان الروم الكاثوليك ، والسريان الروم الكاثوليك ، والأرمن الروم الكاثوليك ، والأقباط الروم الكاثوليك ، والكلدان الروم الكاثوليك ، والموارنة الروم الكاثوليك ، والبروتستانت ، والإنجيليون . . واليهود الربانيون الأثوذكس ، واليهود القراؤون ، واليهود السامريون ، والصابئة ، واليزيدية والشوابك ، والبهائية ، والديانات القبلية الزنجية الأرواحية . . إلخ . .

وعلى خارطة التعددية فى المذاهب الإسلامية -الكلامية والفقهية- السنة بمذاهبها ، والشيعة بمذاهبها . . فهناك : الأحناف ، والمالكية ، والشافعية ، والحنابلة ، والجعفرية ، والزيدية ، والإباضية ، والظاهرية ، والإسماعلية ، والدروز ، والعلويون (النصيرية) . . إلخ . .

هكذا ، تجسدت فى خارطة الحياة الإنسانية ، بالحضارة

الإسلامية : أمة واحدة ، ضمت كل ألوان التنوع والتعدد والاختلاف فى الفروع - التى تكوّن لبنات البناء الواحد لأمة الإسلام - المتحدة فى العقيدة والشريعة والحضارة ودار الإسلام . . والمتنوعة فيما عدا ذلك من السمات والقسمات ! . .

تلك هى قصة الاقتران بين التعددية والإسلامية ، كأمة وحضارة . . كما عرضت لها وقائع التاريخ[1] .

(1) انظر تفصيل ذلك بكتابنا (الإسلام والتعددية) طبعة دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧ م .

لكننا . . ومنذ الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة ، نشهد مخططاً معادياً لوحدة الأمة ، يريد أن يحوّل «نعمة التعددية» إلى «نقمة» ! وأن ينتقل بطوائف الأقوام والملل والمذاهب من «لبنات» في بناء الأمة الواحدة إلى «ثغرات» في جدار الأمن الوطني والقومي والحضاري . .

بدأ ذلك المخطط بمحاولات بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) مع نفر من أقباط مصر ، إبان الحملة الفرنسية عليها (١٢١٣ هـ ١٨٩٧ م) . . عندما أغرى جماعة من «أراذل الأقباط» - كما سماهم الجبرتي (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م) . . فأقاموا فيلقا قبطيا ، شارك مع الجيش الفرنسي في القهر الاستعماري لمصر وفي إخماد ثوراتها وانتفاضات مدنها وقراها ضد الغزاة . . وكانت قيادة هذا الفيلق «للمعلم» يعقوب حنا (١١٥٨ - ١٢١٦ هـ ١٧٤٥ - ١٨٠١ م) - الذي نبذته كنيسته القبطية . . وجعله الفرنسيون «جنرالا»! . . وسماه الجبرتي «يعقوب اللعين»! .

ولقد استهدفت هذه المحاولة البونابرتية - وحدة الأمة ، عندما أرادت سلخ مصر - باسم «الاستقلال» - عن محيطها العربي والإسلامي ؛ وقطع روابطها بهويتها الحضارية وتراثها الإسلامي ، وذلك بإلحاقها بالغرب ، وإحلال «التشريعات التي ترضى عنها فرنسا» محل شريعة الإسلام- التي تمثل سمة من سمات وحدة الأمة

الإسلامية-[1] . . وكانت تلك أقدم محاولات التفتيت للأمة فى عصرنا الحديث .

وتزامنت مع هذه المحاولة ، دعوة بونابرت سنة ١٧٩٩م للطوائف اليهودية - التى نعمت فى الحضارة الإسلامية بما لم تحلم به فى حضارة أخرى - دعوته لها كى تتحالف مع جيشه الغازى ومشروعه الاستعمارى ، فتقوم بدور «ثغرة الاختراق» و «موطئ القدم» ، وذلك مقابل تمكينهم من فلسطين . . فأصدر بونابرت نداءه لهذه الطوائف اليهودية ، أثناء حصاره لمدينة «عكا» . . فقال :

«من نابليون بونابرت ، القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية فى إفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين .

أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب الفريد . . انهضوا بقوة : أيها المشردون فى التيه . . لابد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت نير العبودية ، وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة . .

إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل . . إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به . . قد اختار القدس مقراً لقيادته ، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة ، التى استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها . .

يا ورثة فلسطين الشرعيين ، إن الأمة الفرنسية . . تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء» . .[2] !!

---

(١) د . أحمد حسين الصاوى (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ١٢٣ - ١٣٢ ملحق ٦ ، ٧ ، ٨ - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

(٢) محمد حسنين هيكل (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية) الكتاب الأول ص ٣١ ، ٣٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م .

فكما بدأ المشروع الاستعمارى الغربى فتح ثغرات الاختراق والتفتيت على جبهة أقباط مصر . . بدأ فتح ثغرة ثانية على جبهة الطوائف اليهودية . . ساعياً إلى تحويل «نعمة التعددية» إلى «نقمة التشرذم والتفتيت» ! . .

وبعد هزيمة مشروع بونابرت . . واصلت إرساليات التنصير الدينى والتغريب الثقافى - الفرنسية - محاولات الاختراق والتفتيت ، بالعمل على تحويل بعض الطوائف والمذاهب والملل إلى ثغرات اختراق تفتت وحدة الأمة ، وتهدد أمنها الوطنى والقومى والحضارى . . فمدارس الإرساليات الفرنسية فى الشام ، استهدفت - كما عبرت عن ذلك مراسلات قناصلهم - «جعل سوريا - (أى الشام الكبير) - حليفاً أكثر أهمية من مستعمرة» ! و «تأمين هيمنة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة» ! ، وتحويل الموارنة إلى «جيش متقان لفرنسا فى كل وقت»! ، وذلك وصولاً إلى «جعل البربرية العربية - (كما قالوا) ! - تنحنى لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية لأوربا»[1] !!

وما حاوله الفرنسيون مع الموارنة ، حاوله الإنجليز مع الدروز ، فى ذات التاريخ! . . وحاولوه مع اليهود ، عندما أرادوا استخدامهم فى فلسطين سداً أمام مشروع مصر ، بقيادة محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ، ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م) ، لتجديد شباب الشرق ، وعلاج أمراض الدولة

---

(١) من مراسلات القناصل - محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية - بباريس - لسنوات ١٨٤٠ - ١٨٤٢ - ١٨٤٨ - ١٨٩٧ - ١٨٩٨ م انظر د . محمد عمارة (هل الإسلام هو الحل؟ لماذا . . وكيف؟) ص ٢٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م .

العثمانية . . فكتب وزير الخارجية الإنجليزى «بالمرستون» إلى سفيره فى «استانبول» اللورد «بونسونبى» فى ١١ أغسطس سنة ١٨٤٠ م ، يقول له : «عليك أن تقنع السلطان وحاشيته . . بأنه إذا عاد الشعب اليهودى تحت حماية السلطان ومباركته إلى فلسطين ، فسوف يكون ذلك مصدر ثراء له ، كما أنه سوف يكون حائلاً بين محمد على أو أى شخص آخر يخلفه وبين تحقيق خطته الشريرة فى الجمع بين مصر وسوريا . .»[1] !!

فالهدف هو التفتيت للأمة ، بتوظيف اليهود ضد «الجمع بين مصر وسوريا» ! . .

كذلك ، سعى الإنجليز إلى ماسبق وسعى إليه بونابرت - فمقاصد المشروع الغربى واحدة . . مع اختلاف المحتكر للثمرات ! . . وذلك عندما استهدفوا علاقة أقباط مصر بمسلميها . . عن طريق العداء للاثنين ، ومحاولات ضرب الجميع . . وذلك بإقامة قواعد اختراق للتنصير ، وفق المذاهب النصرانية الغربية تارة ، وبغرس وتنمية الشقاق الطائفى مع المسلمين تارة أخرى . . وبالعداء لوحدة الأمة فى كل الأحايين - فاللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧ م) - المعتمد البريطانى فى مصر - تزعجه وحدة الأمة - أقباطها ومسلميها - فى منظومة القيم ، حتى ليتعذر التمييز بين القبطى والمسلم ، فينتقد دينيهما ! ، ويحدد أن العدو بالنسبة له هو الطابع الشرقى للحضارة ، الذى يميزها عن الحضارة

(١) محمد حسنين هيكل (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل) الكتاب الأول . ص ٤٤ ، ٤٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦ .

الغربية الغازية . . فيقول : «إن مسيحية القبطى محافظة - (جامدة) - بقدر ماهو إسلام المسلم . والقبطى غير قابل للتغيير - (التقدم) - . . وهذا راجع « لا لأنه قبطى ، بل لأنه شرقى ، ولأن ديانته التى تسمح بالتقدم قد حوصرت بأخلاط معادية . . وإذا كان المسلم لم يصبح مسيحياً على أى وجه من الوجوه ، فإن القبطى قد أصبح مسلماً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه فى المسلك الأخلاقى واللغة والروح»[1]!

فعدو كرومر - المعتمد البريطانى للاستعمار الإنجليزى فى مصر - هو وحدة الأمة والحضارة ، التى جعلت الجميع شرقيين ؛ بصرف النظر عن الملل والشرائع ، والتى جعلت النصرانى المصرى متوحداً مع المسلمين فى المسلك الأخلاقى واللغة والروح ! . .

* * *

وعندما أخذ مخطط بونابرت مع اليهود - والذى تبناه الإنجليز إبان تصاعد دورهم الاستعمارى فى الوطن العربى - . عندما أخذ هذا المخطط طريقه إلى التطبيق فى أرض الواقع . . عبر وعد بلفور سنة ١٩١٧م . . والانتداب البريطانى على فلسطين (١٩٢٠ - ١٩٤٨م) . . وقيام الدولة الصهيونية سنة ١٩٤٨م . . أصبح لهذه الدولة - كقاعدة غربية فى قلب وطن الأمة - مخططها للتفتيت والتفكيك ، والذى يستهدف إلغاء الأمة ، وتحويلها إلى ركام من الطوائف والملل والنحل والمذاهب والأقوام والأعراق . .

(١) كرومر (مصر الحديثة) - والنص فى : محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٩٣ . طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م .

ولأن الإسلام هو عامل التوحيد الأول لهذه الأمة ، فلم يقف مخطط التفتيت الصهيونى عند دائرة الأمة العربية ، وإنما امتد ليشمل عالم الإسلام ، من شبه القارة الهندية إلى المغرب الأقصى على شاطئ الأطلسى! . . فكانت الخطة التى صاغها المستشرق الصهيونى «برنارد لويس» Bernard Lewis . . والتى نشرتها مجلة Executive Lntelligence researchproject - التى تصدرها وزارة الدفاع الأمريكية - البنتاجون - . . والتى يخطط فيها « لتقسيم الشرق إلى دويلات اثنية أو مذهبية . . وبموجب تلك الخطة يدعو برنارد لويس إلى :

١ - ضم إقليم بلوشستان الباكستان إلى مناطق البلوش المجاورة فى إيران ، وإقامة دولة بلوشستان .

٢ - ضم الإقليم الشمالى الغربى من الباكستان إلى مناطق البوشتونيين فى أفغانستان ، وإقامة دولة بوشتونستان .

٣ - ضم المناطق الكردية فى إيران والعراق وتركيا ، وإقامة دولة كردستان .

٤ - إن اقتطاع المناطق الكردية والبلوشية من إيران ، يفتح ملف التقسيم الداخلى لإيران ، فى ضوء الواقع الإثنى ، بما يحقق إقامة الدويلات التالية :

ا - دويلة إيرانستان .

ب - ودويلة أذربيجان .

جـ - ودويلة تركمانستان .

د - ودويلة عربستان .

٥- إقامة ثلاث دول في العراق:

ا - إحداها كردية سنية في الشمال .

ب - والثانية سنية عربية في الوسط .

جـ - والثالثة شيعية عربية في الجنوب .

٦- إقامة ثلاث أو أربع دويلات في سوريا:

ا - منها واحدة درزية .

ب - وثانية علوية (نصيرية) .

جـ - وثالثة سنية .

٧- وتقسيم الأردن، إلى كيانين:

ا - أحدهما للبدو .

ب - والآخر للفلسطينيين - (دون إشارة للضفة الغربية للأردن .. التي ستضمها إسرائيل) - ! ..

٨ - أما العربية السعودية ، فسوف يحسن إعادتها إلى الفسيفساء القبلية التي كانت فيها قبل إنشاء المملكة سنة ١٩٣٢ م ، بحيث لا يعود لها من الوزن سوى ما للكويت والبحرين وقطر وإمارات الخليج الأخرى ! ..

٩- يعاد النظر في الجغرافيا السياسية للبنان، على أساس إقامة:

ا - دويلة مسيحية .

ب - ودويلة شيعية .

جـ - ودويلة سنية .

د – ودويلة درزية .

هـ – ودويلة علوية .

١٠- تقسم مصر إلى دولتين على الأقل:

ا – واحدة إسلامية .

ب – والثانية قبطية .

١١- يفصل جنوب السودان عن شماله، لتقام فيه:

ا – دولة زنجية مستقلة فى الجنوب .

ب – ودولة عربية فى الشمال .

١٢- يعاد النظر فى الجغرافية السياسية للمغرب العربى، بحيث تقام للبربر أكثر من دولة حسب التوزع والانتماء القبليين.

١٣- كذلك يعاد النظر فى الكيان الموريتانى، من خلال الصراع القائم بين العرب والزنوج والمولدين».

وبعد هذا التخطيط ، الذى يضيف إلى «تجزئة وتفتيت (سيكس – بيكو) سنة ١٩١٦ م » أكثر من ثلاثين دويلة ، عرقية ودينية ، ومذهبية . . . يضيف برنارد لويس قوله : «إن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع ، وإن ما هو على السطح يتناقض مع ما هو فى العمق : على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة ، ولكن فى العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها فى هذه الدول ، بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة » ! . .

فالمخطط لا يرى إلا الصراع . . وهو يريد تفتيت الأقوام والملل والمذاهب إلى دويلات ، ليس لها أدنى مقومات الدول . . كل ذلك

لحساب جعل الطوائف اليهودية ، التى لا تجمعها روابط الأمة الواحدة أو الحضارة الواحدة ، والتى لم تقم ، عبر تاريخها الطويل دولة متحدة . . كل ذلك لحساب أن تصبح هذه الطوائف الدولة المهيمنة على وطن العروبة وعالم الإسلام ! . .

نعم : يفصح برناردلويس عن هذا المقصد ، فيقول فى هذا المخطط : «ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات ، لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد ، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها على مسائل حدود وطرقات ومياه ونفط وزواج ووراثة . إلخ . . ونظراً لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل ، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل»[1] ! . .

ففى سبيل العلو الإسرائيلى ، الموظف لحساب المشروع الغربى ، يكون التخطيط والتنفيذ لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية إلى ذرات من الأقوام والملل والنحل والمذاهب والطوائف والأعراق والألوان ! . .

* * *

ولم يقف الأمر عند التخطيط . . بل لقد أخذ هذا المخطط طريقه إلى التنفيذ بعد سنوات قليلة من قيام إسرائيل . . فبدأ السعى لتحويل عالمنا وأمتنا إلى «مجتمعات فسيفسائية . . أو مجتمعات الموزايك Mosaic Society» .

ففى سنة ١٩٥٤ م تقدم «دافيد بن جوريون» - أحد مؤسسى الدولة الصهيونية ، وأول رئيس لوزرائها- فأعلن : «أن الوقت يعتبر مناسباً لدفع

(١) محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ١٣١ - ١٣٣ ، ١٤٣ . طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م .

لبنان - (أى الموارنة) - إلى المطالبة بإقامة دولة مسيحية . . وأن هذا المشروع سوف يؤدى ، حين نجاحه ، إلى إحداث تغيير أساسى وحاسم في الشرق الأوسط ، وستبدأ مرحلة جديدة . .» ! . .

وسجل «موشى شاريت» - (رئيس وزراء إسرائيل يومئذ) - فى مذاكراته ، بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٤ م تفصيل اقتراح «بن جوريون» : « من الواضح أن لبنان هو الحلقة الأضعف فى الجامعة العربية ، ومعظم الأقليات فى الدول العربية الأخرى هى أقليات إسلامية : باستثناء الأقباط ، لكن مصر هى أكثر الدول العربية تماسكاً واستقراراً ، خاصة أن الأغلبية هناك تتشكل من مجموعة دينية واحدة ، ذات تراث واحد ، فيما لا تؤثر الأقلية القبطية بشكل جدى فى الوحدة السياسية والوطنية للدولة ، على عكس الوضع فى لبنان ، إذ يشكل المسيحيون الأغلبية عبر التاريخ اللبنانى ، وهذه الأغلبية لها تراثها وثقافتها المختلفة عن تراث وثقافة الدول العربية الأخرى الأعضاء فى الجامعة العربية . (لقد كانت غلطة لا تغتفر من فرنسا أنها وسّعت حدود لبنان إلى ما هو عليه اليوم) ، إذ ضمن الحدود الحالية للبنان لا يستطيع المسلمون أن يفعلوا ما يريدون ، حتى لو كانوا يشكلون الأكثرية هناك ، وذلك خوفاً من المسيحيين - (لست أدرى ما إذا كانوا يشكلون الأكثرية بالفعل ؟) - . وهكذا تبدو مسألة خلق دولة مسيحية أمراً طبيعياً ، لها جذورها التاريخية ، وستلقى مثل تلك الدولة دعماً واسعاً من العالم المسيحى الكاثوليكى والبروتستانتى . .

كان مثل هذا الأمر يبدو شبه مستحيل فى الظروف العادية ،

وذلك لسبب رئيسى هو كون المسيحيين يفتقرون إلى الشجاعة والحافز من أجل تنفيذ مشروع كهذا . أما فى حالة انتشار الفوضى والاضطرابات وظهور أعراض الثورة أو الحروب الأهلية ، فإن الأمر يصبح مختلفاً ، إذ يتصرف الضعيف كبطل فى مثل تلك الأوقات . وبما أننا لا نستطيع الجزم بالنسبة للأمور السياسية ، نقول ربما كان الوقت الحالى هو الظرف المناسب لخلق دولة مسيحية مجاورة لنا ، ومن دون مبادرتنا ودعمنا القوى لا يمكن إخراج تلك الدولة إلى حيز الوجود ! . . يبدو لى أن هذا هو واجبنا الأساسى ، أو على الأقل أحد الهموم الرئيسية لسياستنا الخارجية . وهذا يعنى أن علينا أن نحسن استثمار الجهد البشرى ، وعامل الوقت ، والعمل بكل الطرق الممكنة لإحداث تغيير أساسى فى لبنان . يجب علينا تجنيد «ساسون»(١) وكل من يتكلم العربية بيننا ، ولن نتقاعس عن توفير الأموال اللازمة لإنجاح هذه السياسة . ولا بأس لو اضطررنا أحياناً إلى إنفاق الكثير دون التوصل إلى نتائج سريعة .

فلنركز جهدنا جميعاً على هذه القضية ، فقد لاحت فى الأفق فرصتنا التاريخية ، ولن يغفر لنا التاريخ إضاعتها سدى . لنكن على ثقة بأن موقفنا هذا لا يتضمن أى تحد للقوى الكبرى ، إذن علينا أن نشرع فى العمل فوراً وقبل فوات الأوان .

وفى سبيل الوصول إلى ما نبتغيه ، علينا فرض قيود على الحدود

---

(١) هو أحد الخبراء الصهاينة فى اللغة العربية ، والعادات العربية . والد أول سفير لإسرائيل فى مصر بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية . ومؤلف كتاب (سبع سنوات فى بلاد المصريين) . وهو عن سنوات سفارته بمصر من سنة ١٩٨١ حتى سنة ١٩٨٨ م .

اللبنانية وتنظيمها ، ويستحسن اختيار بعض اللبنانيين في الداخل والخارج وتجنيدهم من أجل خلق الدولة المارونية . لست علي معرفة بأناس يمكننا التنسيق معهم في لبنان ، ولكن هناك طرقاً عديدة يمكننا بواسطتها تحقيق المشروع المقترح . . » .

إمضاء : دافيد بن جوريون

وفى تعقيب «موشى شاريت» على هذه «البروتو كولات» ، التى سطرها «بن جوريون» ، كتب - فى ١٨ مارس سنة ١٩٥٤ م - يقول : «إننى بالتأكيد أحبذ تقديم المساعدات والدعم الفعال لأى شكل من أشكال تحريك الأقلية المارونية بهدف تثبيت وتقوية ميولها الانعزالية ، بغض النظر عن مدى فرص النجاح أمامها ، في حال وجود مثل تلك القاعدة يعتبر مجرد تحريك الأقليات عملاً إيجابياً لما قد ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر ، ناهيك عن المتاعب التى يمكن أن يسببها للجامعة العربية ، كما أنه يخدم غرض صرف الأنظار عن تعقيدات الوضع العربى الإسرائيلى ، ويذكى النار فى مشاعر الأقليات المسيحية فى المنطقة ، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال . . وعلاوة على ذلك ، أود أن أوكد على ضرورة إبقاء هذه الخطة فى نطاق السرية الكاملة ، لأننا فى حال تسربها وانتشارها - وهو خطر لا يمكن إنكاره فى ظل الظروف الراهنة للشرق الأوسط - ستعانى خسارة لن يعوضها شيء ، ولو كان نجاح العملية ذاتها . .» !

هكذا ، ومنذ سنة ١٩٥٤ م ، بدأت اسرائيل تنفيذ مخطط :

١ - تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات فى العالم العربى . . بدءاً بالأقلية المارونية . .

ب – وتحريك الأقليات ، لتدمير المجتمعات المستقرة ، وإذكاء النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة ، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال !! . .

وفي ضوء هذا المخطط ، علينا أن نراجع مظاهر الانعزال لدى الأقليات . . وألوان تحركاتها كأقليات ، وتزايد الحديث عن همومها – داخلياً وخارجياً – . . وتزايد الأضواء المسلطة عليها ، في عزلة عن مجتمعاتها!! . . علينا أن نراجع مظاهر وثمرات هذا المخطط عبر العقود التي تلت هذا التخطيط! . . وأن نرصد الأفكار والنظريات والمؤسسات التي أحترفت وتحترف «صناعة عزل وتحريك الأقليات» .

وإذا كان «موشى شاريت» – رئيس وزراء إسرائيل يومئذ– قد كتب هذا التعقيب على مذكرة «دافيد جوريون» في مارس سنة ١٩٥٤م . . فلقد عقدت القيادة الإسرائيلية اجتماعاً مشتركاً ، لوضع هذا التخطيط في التنفيذ – في ١٦ مايو سنة ١٩٥٤ م – » حضره كبار مسئولي وزارتي الدفاع والخارجية . وفيه طالب «بن جوريون» مرة أخرى : بتحريك الأوضاع في لبنان ، والقيام بعمل ما ، خاصة أن الظروف ملائمة للغاية ، بسبب تزايد التوتر بين العراق وسوريا ، وتفاقم الأوضاع الداخلية التي تعاني منها سوريا ، وسارع «موشى ديان» إلى تأييد موقف « بن جوريون » ، بحماس بالغ .

كان أهم ما يشغل «ديان» هو العثور على ضابط لبناني ، ولو برتبة

رائد ، للقيام بدور المنقذ للشعب المسيحى[1] ، وفى حال إيجاد مثل هذا الشخص يكون دور إسرائيل العمل لاستمالته بإظهار المودة تجاهه أو إغرائه بالأموال ، عندها سيتمكن الجيش الإسرائيلى من دخول لبنان واحتلال الأجزاء الضرورية من الحدود ، وأخيراً خلق كيان مسيحى يقيم علاقات وثيقة مع إسرائيل ، أما بالنسبة للمناطق الواقعة جنوب «الليطانى» فسوف يتم ضمها إلى إسرائيل نهائياً» .

«بعد ذلك أوصى رئيس الأركان- «ديان» - بتنفيذ هذه الخطة فى الغد ، ودون انتظار النتائج التى ينتظر أن يسفر عنها الوضع المتوتر بين دمشق وبغداد . . » .

ويعلق «موشى شاريت» - فى مذكراته - على نتائج اجتماع ١٦ مايو ١٩٥٤ م ، فيقول : «فى الوقت ذاته ، وافقتُ على تشكيل لجنة مشتركة من موظفى وزارتى الدفاع والخارجية لمعالجة الشئون اللبنانية ، على أن تكون تلك اللجنة (كما طالب بن جوريون) تحت إشراف رئيس الوزارء» .

كان رئيس الأركان - «ديان» - لم يزل مصراً على رأيه ، بضرورة العثور على ضابط لبنانى لاستخدامه كواجهة لتنفيذ أغراضنا فيتمكن الجيش الإسرائيلى عندها من الاستجابة لنداء الإغاثة المنطلق من لبنان ، ويهرع لتحريره من الاضطهاد الإسلامى . لن تكون تلك العملية سوى مغامرة جنونية ، لكن علينا أن نعمل لمنع المضاعفات الخطيرة ، وعلى اللجنة أن تكلف بمهمة القيام

(١) لاحظ أن المسيحيين ، يومئذ فى لبنان كانوا يهيمنون على مختلف ميادين وقطاعات ومؤسسات الدولة والمجتمع ! . .

بالدراسات ، وأن تعمل بحذر وتعقل لتوجيه وتشجيع الدوائر المارونية الرافضة للضغوط الإسلامية كي تضع ثقتها بنا وتعتمد علينا كلياً . . » !

ونحن عندما نقرأ هذا الذى كتبه «موشى شاريت» – فى مذاكراته – بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩٥٤ م . . فكأنما نشاهد ما تجسد على أرض لبنان فى السبعينيات والثمانينيات . . لقد استطاع التنفيذ الصهيونى – بتحريك الأقلية المارونية نحو المزيد من الانعزالية . . وبخلق العمالة فى صفوفها – أن يحقق «البروتو كولات» التى سجلتها مذكرات «موشى شاريت» فى الخمسينيات !![1] . .

* * *

ولم يكن لبنان سوى نقطة البدء . . فمنذ الخمسينيات ، حدد هذا المخطط التفتيتى أن الهدف هو «المنطقة» ، وليس فقط «لبنان» فالهدف من تحريك الأقليات هو تدمير مجتمعاتها المستقرة ، وإذكاء النار فى مشاعر الأقليات فى المنطقة ، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال . . تحقيقاً لواقع «المجتمعات الفسيفسائية أو مجتمعات الموزايك Mosaic Society» . . .

فبدأ ، منذ عقد الثمانينيات ، تطوير المخطط ، لتعميمه فى الوطن العربى ، كخطوة نحو الآفاق التى رسمها له برنارد لويس . . آفاق العالم الإسلامى ، من شبه القارة الهندية إلى شاطئ الأطلسى ! . .

ففى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٨١ م . . نشرت جريدة «معاريف»

(١) انظر : د . سعد الدين إبراهيم (الملل والنحل والأعراق : هموم الأقليات فى العالم العربى) ص ٧٤٠ – ٧٤٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م .

الإسرائيلية ، نص محاضرة لوزير الدفاع الإسرائيلى «أريل شارون» ، تحدث فيها عن آمال التفتيت - فى الثمانينيات - لمجتمعات - كمصر - كان «بن جورين» يستبعد إمكانية تفتيتها فى الخمسينيات ! . . قال «شارون» : « إن إسرائيل تتصل بمجالها الحيوى إلى أطراف الاتحاد السوفيتى شمالاً ، والصين شرقاً ، وإفريقيا الوسطى جنوباً ، والمغرب العربى غرباً - (أى العالم الإسلامى كله) - فهذا المجال عبارة عن مجموعات قومية وإثنية ومذهبية متناحرة . ففى الباكستان شعب «البلوش» ، وفى إيران يتنازع على السلطة كل من الشيعة والأكراد ، والمسألة الأرمنية ، أمّا فى العراق فمشكلاته تتدرج فى الصراع بين السنة والشيعة والأكراد ، فى حين أن سورية تواجه مشكلات الصراع السنى العلوى ، ولبنان مقسوم على عدد من الطوائف المتناحرة ، والأردن مجال خصب لصراع من نوع : فلسطينى - بدوى ، كذلك فى الإمارات العربية ، وسواحل المملكة العربية السعودية الشرقية ، حيث يكثر الشيعة من ذوى الأصول الإيرانية ، وفى مصر جو من العداء بين المسلمين والأقباط ، وفى السودان حالة مستمرة من الصراع بين الشمال والجنوب المسيحى - الوثنى ، أما فى المغرب فالهوة ما بين العرب والبربر قابلة للاتساع»[1] . .

فكأنه يعيد قراءة مخطط التفتيت الذى وضعه «برنارلويس» للعالم الإسلامى بأسره ، مع حديث عن هذا العالم الإسلامى باعتباره «المجال الحيوى لإسرائيل» !! - وهو «جنون كاذب للعظمة» . . فما إسرائيل - فى هذا المخطط - إلا «أداة . . وشريك» ! . .

---

(١) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

وفى العام التالى - سنة ١٩٨٢ م - تعيد المنظمة الصهيونية العالمية الإفصاح عن هذا المخطط ، فتنشر مجلتها الفصلية (الاتجاهات) «كيفونيم» Kivunim - عدد ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢ م - تحت عنوان «استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات» : «إن العالم العربى - الإسلامى ليس هو المشكلة الاستراتيجية الأساسية التى ستواجهنا خلال الثمانينيات ، وذلك على الرغم من أن له النصيب الأوفر فى تهديد إسرائيل بسبب قوته العسكرية الآخذة فى الازدياد .

وهذا العالم ، بطوائفه وأقلياته وأجنحته ونزاعاته الداخلية التى تؤول إلى دمار داخلى مذهل - كما نشهد اليوم فى لبنان وإيران غير العربية ، والآن فى سوريا أيضاً[1] - غير قادر على التصدى لمشكلاته الأساسية الشاملة ، وبالتالى فإنه لا يشكل تهديداً فعلياً لدولة إسرائيل فى المدى البعيد ، وإنما فى المدى القصير ، إذ هناك أهمية كبرى لقوته العسكرية الآنية .

فعلى المدى البعيد لايستطيع هذا العالم البقاء ببنيته الحالية فى المناطق المحيطة بنا ، من دون تقلبات فعلية .

إن العالم العربى مَبنى مثل برج ورقى مؤقت ، شيده الأجانب (فرنسا وبريطانيا فى العشرينيات) من دون اعتبار لإرادة السكان وتطلعاتهم . فقد قسم إلى ١٩ دولة ، كلها مكونة من تجمعات من الأقليات والطوائف المختلفة التى يناصب بعضها البعض العداء . وهكذا ، فإن كل دولة عربية - إسلامية تتعرض اليوم

(١) فى تلك التاريخ كانت الحرب الطائفية فى لبنان قائمة ، وكانت أحداث حماة بين جماعات إسلامية والحكومة مثارة ، وكانت إيران فى حرب مع العراق ونزاع مع الأكراد . .

لخطر التفتت الإثني- الاجتماعي في الداخل ، لدرجة أن بعضها يدور فيه الآن حروب أهلية .

إن صور الوضع (القومية - الإثنية - الطائفية هذه) من المغرب حتى الهند ، ومن الصومال حتى تركيا ، تشهد على انعدام الاستقرار ، والتفتت السريع في جميع أنحاء المنطقة المحيطة بنا .

وعندما نضيف إلى ذلك الصورة الاقتصادية ، فإننا ندرك إلى أي حد تقوم المنطقة بأسرها فعلاً على برج من الورق ، من دون أي فرص للتصدى لمشكلاتها الخطرة .

إن مصر مفككة ومنقسمة إلى عناصر سلطوية كثيرة ، وليس على غرار ما هي الحال اليوم ، لا تشكل أي تهديد لإسرائيل ، وإنما ضمانة للأمن والسلام لوقت طويل ، وهذا اليوم في متناول يدنا .

إن دولاً مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منهما لن تبقى على صورتها الحالية ، بل ستقتفي أثر مصر في انهيارها وتفتتها ، فمتى تفتت مصر تفتت الباقون - (!!)- إن رؤية دولة قبطية مسيحية في صعيد مصر ، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية - مصرية ، لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن ، هي مفتاح هذا التطور التاريخي الذي أخرته معاهدة السلام ، لكنه لا يبدو مستبعداً في المدى الطويل .

إن الجبهة الغربية ، التي تبدو للوهلة الأولى معضلة ، هي أقل تعقيداً من الجبهة الشرقية ، حيث أصبحت ماثلة أمامنا اليوم جميع الأحداث التي كانت بمثابة أمنية في الغرب ، ذلك أن تفتت لبنان

بصورة مطلقة إلى خمس مقاطعات إقليمية هو سابقة للعالم العربى بأسره ، بما فى ذلك مصر وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية ، إذ أخذ ينحو منحى مشابهاً منذ اليوم .

إن تفتت سوريا والعراق لاحقاً إلى مناطق ذات خصوصية إثنية ودينية ، على غرار لبنان ، هو هدف من الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل فى الجبهة الشرقية فى المدى البعيد ، إذ إن تشتيت القوة العسكرية لهذه الدول هو اليوم الهدف المرسوم فى المدى القصير ، وسوف تتفتت سوريا وفق التركيب الإثنى والطائفى إلى عدة دول مثل لبنان حالياً[1] ، بحيث تقوم على ساحلها دولة علوية - شيعية ، وفى منطقة حلب دولة سنية ، وفى منطقة دمشق دولة سنية أخرى معادية للدولة الشمالية ، والدروز سيشكلون دولة ، ربما أيضاً فى الجولان عندنا[2] وطبعاً فى حوران وشمال الأردن ، وستكون هذه ضمانة الأمن والسلام فى المنطقة بأسرها فى المدى الطويل . وهذا الأمر فى متناول يدنا اليوم .

إن العراق ، الغنى بالنفط من جهة ، والذى يكثر فيه الانشقاق والأحقاد فى الداخل من جهة أخرى ، هو المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل ، إن تفتيت العراق هو أكثر أهمية من تفتيت سوريا[3] ، فالعراق أقوى من سوريا ، وقوته تشكل فى المدى القصير خطراً على إسرائيل أكثر من أى خطر آخر . وحرب عراقية -

---

(١) الإشارة إلى لبنان أثناء الحرب الطائفية .. وقبل اتفاق الطائف ، والتغلب على محنة الحرب .

(٢) الجولان السورى المحتل من قبل إسرائيل فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ م .

(٣) فى ضوء هذه الأولويات يقرأ ما يحدث لوحدة العراق بعد حرب الخليج الثانية !!

سورية ، أو عراقية - إيرانية سوف تفتت العراق وتؤدى به إلى انهيار فى الداخل قبل أن يصبح فى إمكانه التأهب لخوض صراع على جبهة واسعة ضدنا . وكل مواجهة بين الدول العربية تساعدنا على الصمود فى المدى القصير ، وتختصر الطريق نحو الهدف الأسمى ، وهو تفتيت العراق إلى شيع مثل سوريا ولبنان . وفى العراق سوف يكون التقسيم الإقليمى والطائفى متاحا ، كما كان الوضع فى سوريا فى العهد العثمانى . وهكذا تقوم ثلاث دول (أو أكثر) حول المدن العراقية الرئيسية : البصرة ، وبغداد ، والموصل ، إذ تنفصل مناطق شيعية فى الجنوب عن الشمال السنى والكردى بأكثريته ، ولعل المواجهة الإيرانية العراقية تؤدى إلى ازدياد حدة هذا الاستقطاب اليوم .

إن شبه الجزيرة العربية بأسره هو عرشح طبيعى للانهيار ، وأكثر اقترابا منه ، بفعل ضغط داخلى وخارجى ، وهذا الأمر غير مستبعد في معظمه ، خصوصاً فى السعودية ، سواء أبقيت القوة الاقتصادية القائمة على النفط أم انخفضت فى المدى البعيد . فالاضطراب والانهيار من الداخل هما مسار واضح وطبيعى فى ضوء تركيبة الدول القائمة ، التى تفتقر إلى كيان .

إن الأردن هدف استراتيجى آتى فى المدى القصير ، لكنه ليس كذلك فى المدى الطويل ، لأنه لا يشكل أى تهديد فعلى فى المدى الطويل ، بعد انحلال وتصفية الحكم المديد للملك حسين ، وانتقال السلطة إلى الفلسطينيين فى المدى القصير . ليس هناك أى إمكان بأن يبقى الأردن قائما على صورته وبنيته الحاليتين فى المدى الطويل . وينبغى أن تؤدى سياسة إسرائيل ، حربا أو سلما ، إلى تصفية الأردن بنظامه الحالى ، ونقل السلطة إلى الأكثرية الفلسطينية ، فتبديل الحكم شرقى النهر ، سوف يؤدى أيضا إلى

تصفية مشكلة المناطق الآهلة بالعرب غربي النهر ، حرباً أم سلماً ، إن الهجرة من المناطق ، والجمود الاقتصادى- الديموجرافى فيها ، هو الضمانة للتغيير الوشيك على ضفتي النهر[1] ؛ وعلينا أن نكون ناشطين من أجل تسريع هذا التغيير ، وفى وقت قريب .

إنه ، فى العصر النووى ، لايمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك ، ويجب من الآن فصاعداً ، بعثرة السكان ، وهذا دافع استراتيجى . فإذا لم يحدث ذلك ، فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود[2] . . » !! . .

* * *

ولم تغير حقبة التسعينيات - بما حملت من مشاريع «للتسويات» بين العرب وإسرائيل - شيئاً من التخطيط الاستراتيجى الصهيونى لتفتيت وشرذمة العرب والمسلمين ، ولا متابعة تنفيذ هذا التخطيط . .

ففى ٢٠ مايو سنة ١٩٩٢ م عقدت ندوة ، دعا إليها «مركز بارايلان للأبحاث الاستراتيجية» - التابع لجامعة بارايلان الإسرائيلية - شاركت فيها وزارة الخارجية الإسرائيلية- بواسطة « مركز الأبحاث السياسية » - التابع لها - وأسهم فيها باحثون من «مركز ديان» - التابع لجامعة تل أبيب - . . ندوة حول «الموقف الإسرائيلى من الجماعات الإثنية والطائفية فى منطقة الشرق الأوسط » وطموحاتها وتطلعاتها الاستقلالية ، فى ضوء ما حققه أكراد العراق !!! . .

---

(١) أى تهجير العرب من فلسطين إلى شرقى الأردن ، وتحقيق النقاء اليهودى على «الأرض التوراتية» ، كما هو التخطيط الأول للمشروع الصهيونى : أرض بلا شعب لشعب بلا أرض ! .

(٢) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ١٤٠ - ١٤٤ .

أى أن حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١م .. وما فتحته من أبواب التمزق العربى والتشرذم الطائفى قد مثلت بالنسبة لمخطط التفتيت الصهيونى عامل تصعيد، ومرحلة جديدة لدفع واقع عالمنا العربى فى اتجاه «تنفيذ» التخطيط القديم ..

ولقد ناقشت هذه الندوة أحد عشر بحثاً، تفصح عناوينها - مجرد العناوين - عن المحتوى .. فمنها:

«تأييد إسرائيل للنزعات الانفصالية للجماعات العرقية والإثنية، والاعتبارات الكامنة وراءه» ..

و «حرب الخليج هل أنهت تقسيم لبنان»؟ ..

و «دعم إسرائيل للحركة الكردية، قبل وبعد حرب الخليج» ..

و «ثورة الشيعة فى جنوب العراق، أثناء حرب الخليج» ..

و «سوريا هل ستبقى دولة موحدة فى ظل انتعاش الاتجاهات الانفصالية فى المنطقة والعالم»؟ ..

و «إسرائيل ونضال جنوب السودان من أجل الاستقلال والحرية» ..

و «الاستقطاب بين المسلمين والأقباط فى مصر» ..

و «إسرائيل ونضال البربر فى شمال إفريقيا» ..

و «الشيعة فى أقطار الخليج (السعودية - البحرين - الكويت - الإمارات - قطر) هل يثورون كما ثار شيعة لبنان؟ .. الموقف الإسرائيلى والإيرانى» ..

و « إسـرائيل ودول الجـوار فى إفـريقـيـا : أثيـوبيـا - تشـاد - السنغال» . .

و «العلاقات بين إسرائيل ودول الجوار المحيطة بالعالم العربى (تركيا - إيران - أثيوبيا) . .

وفى هذه الأبحاث . . كشف عن صفحات قديمة فى مخطط التفتيت ، تمت فيها «اتصالات» و «محاولات» صهيونية مع أفراد من الطوائف والملل والأقوام العرب والمسلمين ، سبقت قيام الدول الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ م ! . .

وتأكيد على موقع هذا المخطط من «المصالح العليا . . والقضايا المهمة فى المجال الاستراتيجى لإسرائيل» . .

وحديث صريح عن «تبنى الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة سياسة تقوم على دعم الأقليات غير العربية (العرقية) والعربية الطائفية فى الشرق الأوسط وتأييد طموحاتها ورغباتها ، سواء فيما يتعلق بالمساواة فى الحقوق ، وحق تقرير المصير ، أو إقامة كيانات مستقلة ، وذلك انطلاقاً من الحلف الطبيعى القائم بين إسرائيل وهذه الأقليات .

ونحن لن نجانب الحقيقة - (والحديث من مقدمة أبحاث هذه الندوة) إذا قلنا إن هذا المفهوم قد تم تبنيه أيضاً من قبل الحركة الصهيونية وأجهزتها ، بدليل أن الوكالة اليهودية بدأت اتصالاتها بالزعماء الدينيين السياسيين المارونيين فى عهد الاستيطان اليهودى فى فلسطين - أى منذ الثلاثينيات والأربعينيات . .

وقد اتخذ هذا الموقف انطلاقاً من الإدراك بأن هذه الأقليات ،

وخاصة المارونيين فى لبنان والأكراد فى العراق والدروز فى سوريا ، والجماعات الأخرى فى الأقطار العربية الأخرى ، هى شريكة فى المصير ، ولابد من أن تقف مع إسرائيل فى مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية»[1] .

وفى أبحاث هذه الندوة - التى تمثل حلقة التسعينيات فى هذا المخطط القديم - كشف عن حركة «الخط البيانى» لتنفيذ هذا المخطط ، نفهم منه :

* تراجع نجاحات التنفيذ فى حقبة المد القومى العربى ، منذ النصف الثانى لعقد الخمسينيات ، بسبب «تقبل الأقليات غير العربية أو تعايشها مع شعارات» هذا المد - الوحدوية والاجتماعية - . .

* وعودة الاتصالات الصهيونية مع دوائر من هذه الأقليات : فى عقد السبعينيات ، لتراجع المشروع القومى ، بعد حرب سنة ١٩٦٧ . . « كما شهد عقد الثمانينيات تحولات كبيرة فى تطور الاتصالات مع تلك الأقليات والجماعات» .

* أما فى حقبة التسعينيات «وأحداث الخليج والحرب التى دارت فى أعقابها» فلقد انتقل التنفيذ الصهيونى لهذا المخطط إلى طور جديد . . فحرب الخليج «أدت إلى إيجاد ظروف جديدة لتعميق الاتصالات ، وتوسيع دائرتها ، لتتحول هذه المرة إلى موقف

---

(١) ندوة الموقف الإسرائيلى من الجماعات الإثنية والطائفية فى العالم العربى) ص ٦ . ترجمة الدار العربية للدراسات والنشر . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م .

إسرائيلي ثابت يرتكز على ضرورة تقديم الدعم العسكرى ، وعدم الاكتفاء بالدعم السياسى والمعنوى . . إن تطورات وتداعيات أزمة الخليج والحرب التى نشبت بسببها حتّمت انتقال السياسة الإسرائيلية الثابتة فى دعم الأقليات إلى مرحلة الدعم والتأييد الفعلى والعملى . . تحقيقاً لمصلحة إسرائيل ، التى تقضى أن تكرس تلك الصراعات وتتعمق ، لأن انقسام العالم العربى يعنى فى نهاية المطاف إضعافه وتشتت قواه وطاقاته التى كان يمكن أن يُعبئها ويحشدها فى مواجهة إسرائيل . .»![1] .

فالحديث عن «السلام» ، والدخول فى مشاريع «التسوية» قد صاحبها ـ وهذا ما يجب تدبره وتأمله ملياً ـ تصاعد الخط البيانى لتنفيذ «الثوابت» الصهيونية لتفتيت الأمة ووطنها . . لأن المقاصد الصهيونية والغربية «ثوابت» وليست «متغيرات» . . إنها بعبارة «مخطط التسعينيات» ـ : «مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية»!! . . ذلك أن أى طائفة أو جماعة تعادى القومية العربية (العدو الأول للشعب اليهودى) ، أو تبدى استعداداً لمحاربتها أو مقاومتها ، هى حليف وقوة لنا لتنفيذ سياسة الاستيطان والدولة التى مازالت فى مرحلة التكوين»!![2] .

فالمشروع الصهيونى لازالت دولته ـ فى التسعينيات ـ «بمرحلة التكوين» . . واكتمال هذا التكوين وثباته رهن بالخلاص من وحدة العرب ، حتى فى الأُطر القطرية التى فرضها عليهم الاستعمار!! . .

* * *

(١) ، (٢) المرجع السابق . ص٧ ـ ١٠ .

هكذا، تحددت ووضحت الاستراتيجية :

* فالغرب قد جعل الصراع سبيله للهيمنة على العالم .. وهو قد جعل العالم الإسلامى هدفاً أول فى صراعه ضد الحضارات غير الغربية ..

* وإسرائيل : مشروع غربى، وأداة غربية فى هذا الصراع الحضارى، الذى تستخدم فيه كل أدوات الصراع ..

* والمخطط الصهيونى - القديم .. والذى بدأ تنفيذه - منذ الخمسينيات - فى لبنان - .. يستهدف تفتيت وتفكيك كل العالم الإسلامى، وتحويله إلى ذرات عرقية وطائفية ومذهبية ؛ وذلك لتحقيق الأمن للهيمنة «الغربية - الصهيونية» فى المدى البعيد .. وبنص عبارة (استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات) : **«فإن التفتيت هو ضمانة الأمن والسلام لإسرائيل فى المنطقة فى المدى الطويل .. وإذا لم يحدث ذلك، فلا بقاء لإسرائيل، مهما كانت الحدود»** !

* وإذا كان المخطط قد بدأ بلبنان .. فإن ميدانه هو كل عالم الإسلام .. وللعراق أولوية فى مخطط التفتيت .. أما مصر فهى ضمان النجاح الصهيونى .. وبعبارتهم : **« .. فمتى تفتتت مصر تفتت الباقون»** !! ..

* وهذا المخطط ينطلق من العمل على تحويل «نعمة التنوع والتعددية»، فى العالم الإسلامى، إلى «نقمة التمزق إلى ذرات» تذروها رياح العلو الصهيونى .. فهم يزعمون أن وحدة العرب

مصطنعة ، وأن العالم العربى «برج ورقى مؤقت» ، اصطنعته إنجلترا وفرنسا فى معاهدة «سيكس - بيكو» سنة ١٩١٦ م ، على غير إرادة من العرب . . بينما الحقيقة التى علمها الجميع أن «سيكس - بيكو» جزأت العالم العربى واستعمرته ، ولم تصطنع له وحدة مصطنعة! . . وأن إرادة العرب ، يومئذ ، كانت وحدة الولايات العربية العثمانية . . وهى إرادة حاربوا فى سبيلها ، وسقط منهم الشهداء دفاعاً عنها ! . .

وهذا الذى تسميه مخططات التفتيت والتفكيك بـ «البرج الورقى» ، و «المجتمعات الفسيفسائية» ، و «مجتمعات الموزايك Mosaic Socity» . . هو ، فى الحقيقة : التنوع والتعددية والتمايز ، الذى حافظ عليه الإسلام ، باعتباره سنة الله - فى الاختلاف - التى لا تبديل لها ولا تحويل ، مع توظيف هذا التنوع وهذه التعددية لبنات فى بناء الأمة ، التى وحَّدها الإسلام فى العقيدة والشريعة والحضارة والدار ، مع احتضان وحدتها للتنوع فى الملل والنحل والأقوام والمذاهب والأوطان والعادات والأعراق . .

فهذه الملل والنحل والأعراق والطوائف والمذاهب ، موجودة منذ قرون ، منها تبلورت الأمة الواحدة . . وجميعها أسهم فى صناعة الحضارة الواحدة ، وفى تجديدها وإحيائها ، وأيضاً فى الدفاع عنها ضد الغزاة . . فتنوعها ميزة ، ومصدر غنى وثراء ، وليس نقيصة ، ولا نقطة ضعف ، طالما ابتعدنا بها عن غلوى الإفراط والتفريط . . الغلو الذى لا يرى سوى التنوع والخصوصيات . . والغلو الذى لا يرى سوى الوحدة ، فينكر الخصوصيات ! . .

وفى ظل تنوع بهذا الاتساع : فى أمة بهذا الحجم ، وأمام تحديات على هذه الدرجة من الشراسة . . لا يتصور عاقل خلو عالم الإسلام من المشكلات ، بل والتوترات . . لكن القضية هى : ما هو الحل؟

هل هو التفتيت والتفكيك إلى ذرات - فى عالم يسلك سبيل التكتلات ، ويتحدث عن صراع الحضارات؟ - وفى ذلك الكارثة المحققة للجميع ؟! . .

أم التطبيق المعاصر والمتطور والخلاق للمنهج التاريخى : الجامع بين «التعددية» وبين «الوحدة» ، والذى تمثل التعددية فيه مصدر غنى وثراء ، بل وزهو نتيه به على الحضارات الأخرى . . وذلك عندما يغنى «التنوع» هذه «الوحدة» الجامعة لأمة الإسلام ؟! . .

* * *

وإذا كانت هذه هى «المخططات الخارجية» - المعلنة - . . والتى وضعتها الغزوة الغربية لعالم الإسلام فى الممارسة والتطبيق ، قبل قرنين من الزمان- منذ حملة بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ - وشارك فيها الكيان الصهيونى منذ ما يقرب من نصف قرن - . . فما هى انعكاسات هذه المخططات على «جبهتنا الداخلية»؟ . . وما هى حظوظ هذا المخطط التفتيتى من النجاح على جبهات الملل والأقوام والمذاهب فى واقعنا - وواقعنا العربى الإسلامى على وجه الخصوص - ؟؟ . .

لابد أن نعترف بأن مواطن عديدة من جبهاتنا الداخلية قد «رشحت» على ثقافات وتوجهات قطاعات منها آثار وتأثيرات من هذه المخططات !! . .

بدأت هذه المخططات فعلها منذ الاحتلال الفرنسى للمغرب العربى ، وخاصة فى العقود الأولى من القرن العشرين . .

فالبربر هم أكبر الجماعات القومية عدداً فى الوطن العربى . . جمعهم الإسلام بالعرب ، وسادت العربية – باعتبارها لغة القرآن والشريعة – أوساطهم الشعبية والعلمية . . لكن المخطط الاستعمارى قد استهدف – وفق ما هو معلن منه بأقلام أصحابه – : فصل الإسلام عن العربية ، حتى لا يربط الإسلام البربر بالأمة العربية . . وفصل العقيدة عن الشريعة– مع أنهما رئتا الإسلام – وذلك حتى ينتقل البربر من اللغة البربرية – غير المكتوبة . . والعاجزة عن تلبية حاجات العصر – إلى اللغة الفرنسية ، وحتى ينتقلوا من «الأعراف المحلية» إلى القانون الفرنسى ، فتنفك روابطهم مع العروبة ، ومع كامل الإسلام!! . . فإذا أصبح القانون علمانياً ، وأصبحت اللغة فرنسية ، فقد تم الفصل والتفتيت . .

يعلن عن ذلك المخطط الكاتب الفرنسى «فيكوربيكيه» ، فى كتابه (العنصر البربرى) – الصادر سنة ١٩٢٥م– فيقول : «إننا نشاهد تغلب اللغة العربية فى السهول ، حيث السكان العرب ، وهذا يمكننا تعليله بأن اللغة البربرية لا تُكتب ، وبأن اللغة العربية هى لغة القرآن . وقد لعبت «الكتاتيب» دوراً هاماً فى الاستعراب . ولذلك ، فإن كل مجهوداتنا يجب أن تصب على تعليم البرابرة

الفرنسية ، بلا واسطة لغة أخرى . لقد هيأنا سنة ١٩٢٣م للمدرسة برنامجاً فرنسياً بربرياً له روح فرنسية كاثوليكية . . وهذه خطة حسنة لوقف التعامل مع اللغة العربية على أنها لغة التفاهم ، ويمكننا بسهولة كتابة البربرية بالحروف الفرنسية ، كما فعلنا بالهند الصينية .

وإذا لم يمكننا عقد الأمل على رجوع البربر عن الإسلام ، ونبذهم لهذا الدين ، لأن جميع الشعوب لا تبقى بدون دين فى مرحلة تطورها ، فيجب أن لا نخشى من ذلك ، خاصة إذا تمكنا أن نفصل بين الإسلام والاستعراب . . وفصل الدين عن القانون المدنى ، مثلما حدث بإدخال تغييرات هامة سنة ١٩١٧م فى قانون الأحوال الشخصية . . ولذلك يمكننا أن نحصر الإسلام فى الاعتقاد وحده . . وعلى هذا لا يهمنا كثيراً أن تضم الديانة الشعب كله ، أو أن آيات من القرآن يتلوها رجال بلغة لا يفهمونها . فالديانة الكاثوليكية تستعمل اللغة اللاتينية والإغريقية والعبرانية فى قداديسها[1] »!!. . .

فسلخ البربر عن الأمة ، مخططه : علمنة الإسلام . . وفرنسة اللغة . . فإذا أصبح القانون علمانياً ، وأصبحت اللغة فرنسية ، فلا خطر من «العقيدة الإسلامية» ولا من آيات قرآنية تتلى بعربية لا يفهمها المتفرنسون ، فمثلها كمثل قداس كاثوليكى باللغة اللاتينية الميتة ! . .

وإذا كانت «الأعراف البربرية» ، بنظر الشريعة الإسلامية ، هى

(١) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٥٨ ، ٥٩ .

مصدر من مصادر الأحكام . . فلقد خطط الفرنسيون لدمج الأعراف البربرية فى القانون الفرنسى ، بدلاً من دمجها فى الشرع الإسلامى ، لاستبعاد الشريعة الإسلامية ، لأنها رباط حياتى مُوَحِّد للأمة . . وعن ذلك كتب «جورج سوردون» - أستاذ الحقوق فى معهد الدروس العليا «بالرباط» - فى كتابه (مبادئ الحقوق العرفية المغربية) - الصادر بالرباط سنة ١٩٢٨م - يقول : «يجب جمع العادات البربرية . . لئلا تضمحل فى الشرع الإسلامى . . إذ العرف ينمحى إزاء القانون . . والأولى أن نرى العرف البربرى يندمج فى القانون الفرنسى من أن نراه يندمج فى القانون الإسلامى ، لأن الأسلحة الفرنسية هى التى فتحت البلاد العربية ، وهذا يخولنا اختيار التشريع الذى يجب تطبيقه فى هذه البلاد . .»[١]!! . . .

وهذا «الفكر» ، الذى صاغه «الأساتذة» الفرنسيون ، مخططاً لسلخ البربر عن العرب والمسلمين ، لم يقف عند حدود «الفكر» . . وإنما وضعته سلطات الاحتلال فى الممارسة والتطبيق . .

«فالمقيم العام الفرنسى» فى المغرب- المارشال «ليوتى» - يصدر الأمر إلى وزارة العدل بالعمل على استبعاد اللغة العربية ، لأنها هى رباط البربر بالإسلام وأمته . . والعمل على الانتقال بالبربر من البربرية إلى الفرنسية مباشرة! . . فيقول فى هذا «الأمر» : «إنه لخطأ فاحش التصرف بشكل يساعد على إعادة إحياء العلاقة بين

(١) المرجع السابق . ص ٥٧ .

العرب والبربر . ولا حاجة لنا فى تعليم العربية للبربر ، فالعربية هى رائد الإسلام ، لأن هذه اللغة تُعَلَّم من القرآن ، ومصلحتنا هى أن تمدن البربر خارج دائرة الإسلام . وأما ما يتعلق باللغة ، فيجب علينا أن نضمن الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية بدون واسطة»[1] !! . .

وتوجّه السلطات الاستعمارية فى الرباط -«الإقامة العامة» - إلى الحكومة الفرنسية فى باريس مذكرة- رقمها ٣٨٨٨ - وإشارتها ال - وتاريخها ١٣ يونيو سنة ١٩٢٧ م - تقول فيها : « إن مبدأ استقلال العرف البربرى ودوائر اختصاصه عن الشرع الإسلامى ، يحقق أكبر مصلحة سياسية لفرنسا ، وإن إبعاد الشرع الإسلامى من جميع بلاد البربر بشكل نهائي ومطلق يسمح لنا فى يوم قد لا يكون بعيداً بإنشاء نظام معقول للعدلية البربرية فى اتجاه فرنسى خالص[2] »! .

وكما تجسد هذا التخطيط لسلخ البربر من الانتماء للأمة : باستبعاد الشريعة الإسلامية واللغة العربية من حياتهم ، كما تجسد هذا التخطيط فى ميدان التعليم ، فلقد تجسد فى ميدان القانون . . فصدر «الظهير - (المرسوم) - البربرى» - فى ١٦ مارس سنة ١٩٣٠م - ليحل الأعراف والعادات المحلية محل الشرع الإسلامى ، حتى فى المواريث والأحوال الشخصية - الأسرة - . . وذلك دمجاً للعرف البربرى بالقانون الفرنسى ، بدلاً من الشريعة الإسلامية[3]!

---

(١) المرجع السابق . ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق . ص ٦٣ .

(٣) المرجع السابق . ص ٦٢ .

لكن أصحاب هذا المخطط التفتيتي - الذى حرسته وطبقته حراب الاستعمار ومؤسساته - قد فاجأتهم خيبة الأمل فى الثمرات والنتائج . . فلقد استعصت الروابط التى وحدت البربر فى كيان الأمة على التفكيك : فشاركوا العرب ، من منطلقات عربية إسلامية ، فى مقاومة الاستعمار الفرنسى ، وانخرطوا جميعاً فى السعى لتحصيل الاستقلال الوطنى ، وقدموا شهداء الحرية والاستقلال جنباً إلى جنب دونما تمييز بين عرب وأمازيغ . . حدث ذلك فى الجزائر وفى المغرب على حد سواء ! . .

ومع ذلك ، وحتى بعد ثورات وانتفاضات الاستقلال والتحرر الوطنى ، واصل الاستعمار الفرنسى رعاية هذا المخطط التفكيكى . . فجامعة «فانسان» - الفرنسية . . بباريس - تقيم فى سنة ١٩٧٦ م «الأكاديمية البربرية» . . وتحتضن فرنسا ، فى جامعاتها ومؤسساتها الثقافية والإعلامية نفراً من البربر ، الذين انسحقوا فى الحضارة الغربية ، وذابوا فى الثقافة الفرنسية ؛ وأصبحوا دعاة لما يسمى «البربريزم» - والذى يعنى عملياً : أكثر من رفض العروبة والإسلام . . يعنى - فوق هذا - القفز من «البربريزم» إلى «الفرنسة» . . وتحقيق ما قاله «ليوتى» عن «الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية» و«دمج العرف البربرى فى القانون الفرنسى ، بدلاً من اندماجه فى الشرع الإسلامى» - كما قال «جورج سوردون» سنة ١٩٢٨ م - !! . .

فدعاة «البربريزم» : الذين يحتقرون تراث العروبة والإسلام ؛ لانظنهم يرون فى التراث البربرى البديل العصرى الكافل بالإقلاع

الحضارى! . . وإنما القضية عندهم ، هى الإلحاق والالتحاق بالغرب والثقافة الفرنسية . .

والكاتب القصصى «مولود معمرى» - وهو جزائرى بربرى - يعبر عن هذا الاتجاه ، الذى يحقّر من تراث العروبة والإسلام ، ويدعو للانطلاق من «العهد الاستعمارى . . فيقول : «إن التراث العربى الإسلامى قد تم تجريده من كل المصادر الحية للوجود . . إنه شكل فارغ ، وهو فى أقل الأحوال سوءاً ، مجرد ديكور عبث ولعبة خاوية . . وإن المنجزات التى تحققت فى العهد الاستعمارى وألوان الرقى المادى والتقنى التى تسبب فيها مكّن الثقافة الهامشية أو المتعرضة للهيمنة (مثل البربرية) من الأدوات الحاسمة لتحريرها . .»[1] !

فهذا الذى يحتقر تراث العروبة والإسلام - وهو تراث أبدعه البربر والعرب معاً - أتراه يعلق الآمال على بديل بربرى ، للغة غير مكتوبة . . بل إنها عبارة عن «لهجات متعددة ، وبعضها يستعصى فهمه حتى على بعض قبائل البربر . . على حين أن معظم البربر يتحدثون العربية ، وبعضهم يجيدها إجادة تامة ، ليس فقط كوسيلة للتخاطب ، وإنما أيضاً كأداة لأرقى أنواع التعبير الثقافى (من أدب وشعر وفقه) ومن الصعوبة بمكان التمييز بين العرب والبربر ، فالعروة الوثقى التى تربطهم ، منذ القرن السابع الميلادى ، هى الإسلام . .»[2] !

(١) (الملل والنحل والأعراق هموم الأقليات فى الوطن العربى) ص ١٨١ .
(٢) المرجع السابق . ص ٦١ .

إن اتجاه «البربريزم» ، لا يعدو أن يكون «الثمرة المرة» للمخطط التفكيكى الاستعمارى ، الذى أفصحت عن معالمه كتابات وأوامر وقوانين غلاة المستعمرين الفرنسيين . . وهى ثمرة يواجهها جمهور العرب والبربر معاً بالرفض والنقد والتحذير .

فالسياسى المغربى البارز - الفقيه : محمد البصرى - يواجه هذا المخطط بوعى عميق ، ومنطق دقيق ، فيقول : «أنا من أصل بربرى . . ومع ذلك ، فإن تاريخى النضالى ، على مدى أربعين عاماً ، قد ارتبط بالوطنية المغربية والقومية العربية . .

لا توجد مسألة بربرية بالمعنى السياسى الحقيقى للكلمة . . فالبربر مندمجون تماماً فى مجتمعهم ، بسبب الرابطة الإسلامية وبسبب التزاوج المستمر . . والمشكلة ، فى نظرى ، هى مشكلة مصالح اقتصادية سياسية ، ومشكلة ديمقراطية . . فالذين يثيرون «المسألة البربرية» ، مثلما هو الحال فى الجزائر مثلاً ، يفعلون ذلك حفاظاً على مصالحهم الاقتصادية والوظيفية فى جهاز الدولة والإدارة الجزائرية ، وهؤلاء هم بربر منطقة القبائل الذين «تفرنسوا» لغة منذ وقت طويل ، ومن ثم مكنهم الاستعمار من شغل كثير من المواقع . . ومع استمرار موجة التعريب ، بات هؤلاء يشعرون بالخطر على مصالحهم ، فرفعوا شعار الثقافة البربرية حيناً وشعار الثقافة الجزائرية حيناً فى مواجهة التعريب والثقافة العربية . .

وفى الواقع ، إن من يدعو إلى ثقافة بربرية : فى مواجهة الثقافة العربية ، ينتهى موضوعياً إلى الدعوة إلى الثقافة الفرنسية ، حتى

عن غير قصد ، فحيث إن البربرية لغة غير مكتوبة ، ولا يوجد لها تراث مكتوب ، فإن المناهضة للعروبة والعربية ستنتهى حتماً إلى الأخذ بإحدى اللغات العصرية الأخرى ، ولما كانت الفرنسية هى الأقرب والأقوى ، وهى المتاحة على أى الأحوال ، فإن هؤلاء الدعاة سيأخذون بها . . ومن هنا ، ليس صدفة أن فرنسا هى المشجعة الأولى والرئيسية لحركة الثقافة البربرية . . وإذا كان لى ، كبربرى : أن أختار لغة وثقافة غير بربرية ، فالعربية هى اختيارى ، وهى اللغة الوطنية ، وهى لغة الإسلام ، وهى وسيلتى إلى تراث العرب والمسلمين ، ووسيلتى إلى مستقبل قومى عربى مشترك مع بقية الشعوب العربية . .»[1] .

وإذا كان إمام العروبة والإسلام ، فى تاريخ الجزائر الحديث : وهو الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٣٠٧ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٩ - ١٩٤٠م) ، من أصل بربرى! . . وإذا كان الذى عهدت إليه الدولة الجزائرية بمسئولية التعريب - بعد الاستقلال - وهو المفكر البارز «مولود قاسم» - هو الآخر من أصل بربرى! . . فإن المفكر السياسى الجزائرى البارز : الأستاذ أحمد بن بلة ، يعبر عن موقف الجزائريين ، عرباً وأمازيغ ، من اتجاه «البربريزم» فيقول :

«الثقافة البربرية تختلف فى وجوه هامة عن الثقافة العربية . . وقد عاشت البربرية واستمرت طوال أربعة عشر قرناً ، محافظة على كيانها . . وهذا يعنى أن لها وظيفة اجتماعية تؤديها . . ولا أرى

(١) المرجع السابق - ص ١٧٠ ، ١٧١ .

ضرراً فى ذلك ، ولا مانع من تنمية هذا الإرث والمحافظة عليه ، بشرط ألا يتناقض ذلك مع أساسيات فى الجزائر . . فلا يعنى المحافظة على البربرية إلغاء العربية ، أو محو عروبة الجزائر . والعروبة عندى ، كما عند الكثيرين ، هى لغة وثقافة ، وليس سلالة أو عنصراً . . فنحن جميعاً ، فى المغرب الكبير ، أصلاً من البربر ، ولكن أغلبيتنا أصبحت عرباً ، بحكم تبنى اللغة العربية والإسلام . . والخلاصة ، هى أننى أؤيد المطلب البربرى الثقافى ، ولكننى أرفض مقولة بعض البربر التى تذهب إلى أن العروبة «استعمار» ، مثلها مثل الاستعمار الفرنسى . . وأنا أحذر الإخوة البربر دائماً من مغبة انزلاق المطلب البربرى إلى حظائر أجنبية! . . والأقليات دائماً مهيئة لمد يدها للشيطان الخارجى إذا ما شعرت بالخطر الداهم ، وهذا يحدث عندنا كما يحدث عند غيرنا ، لذلك ، فبقدر ما أحذر الإخوة البربر من الوقوع فى حظيرة الأجنبى ، بقدر ما أريد تحذير المسئولين العرب ، فى الجزائر وغيرها من دفع أى من أشقائنا فى الوطن للوقوع فى هذه الحظيرة . . هناك فرنسيون ، وخاصة من الرهبان ، ولهم مآرب أخرى فى تأييد وإذكاء البربرية . . وأنا لا أتهم أى جزائرى فى وطنيته - سواء كان عربياً أو بربرياً - ولكن مطالب بعض الفئات المشروعة تُستغل أحياناً بواسطة قوى أجنبية ، ويصدق عليها عبارة على بن أبى طالب : «حق يراد به باطل»[1] !

تلك هى حقيقة «الموقف - والمواجهة» على جبهة البربر الأمازيغ ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

أكبر الأقوام غير العرب عدداً فى الوطن العربى - ١٥,١ مليوناً - والذين ظلوا - رغم المخطط التفكيكى الاستعمارى «جزءاً من الثقافة الإسلامية فى المغرب»[1] . . رغم «الرشح» الذى حدث من هذا المخطط الاستعمارى على بعض الرؤى والتوجهات لشريحة من أبناء البربر ، نجحت سياسة الفرنسة الاستعمارية فى «سجنهم» داخل اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية ، فسعوا ويسعون - تحت شعار «البربريزم» - إلى فك الارتباط المقدس والحضارى بين البربر وبين العروبة ، وأحياناً الإسلام أيضاً !! . .

---

(١) تيدروبرت جار (أقليات فى خطر) ص ٢٦٤ ، ٢٦٧ , تعريب : مجدى عبد الحكيم ، سامية الشامى . مراجعة وتقديم : د . رفعت سيد أحمد طبعة القاهرة سنة ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .

لعبت كثير من القوى المعادية لوحدة الأمة ، من خلال الثغرات التى فتحتها هذه القوى منذ إسقاط الخلافة العثمانية ، وإقامة التجزئة والإقليمية بدلاً منها . .

فالأكراد ، كالبربر : مسلمون ، يجمعهم مع العرب المسلمين جامع الإسلام ، الذى يوحد الأمة كلها فى العقيدة والشريعة والحضارة والدار . . والعربية أكثر شيوعاً وأكثر أهمية فى حياة الأكراد وفكرهم من اللغة الكردية القومية . . فالعربية هى اللغة التى فقهوا بها القرآن والشريعة والعبادات . . وهى لغة الفقه والعلم والثقافة عند مثقفيهم وعلمائهم ومفكريهم الذين أبدعوا فى الفكر العربى الإسلامى إبداعات بارزة ، والذين لا يميزهم تميز عن العلماء المنحدرين من أصلاب عربية . . بينما الكردية - لغتهم القومية ، والتى من حقهم الاعتزاز بها وبتراثها - «هى مجموعة متفرقة من اللهجات ، يستعصى على بعض الأكراد أنفسهم فهمها أو الحديث بها جميعاً»[1] ! . . فالعربية ، للأكراد ، هى لغة الدين والعلم والإبداع فى الفكر والثقافة والحضارة . .

لكن سقوط الخلافة الإسلامية ، قد اقترن به تراجع الصيغة الإسلامية للتعايش بين القوميات فى دار الإسلام . . الصيغة التى رأت فى التمايز القومى - المؤسس على التمايز اللغوى- آية من

(١) (الملل والنحل والأعراق) ص ٥٥ .

آيات الله فى الاجتماع الإنسانى . . وحل محل هذه الصيغة - لدى قطاع من الحركة القومية العربية - فكر قومى مشبع بمضامين غربية ، رشحت عليها النزعات العنصرية ، الأمر الذى أدى - بهذه المفهيم القومية العربية - إلى فتح ثغرة بين القوميتين ، العربية والكردية ، عندما تبنى نفر من أبنائهما ذات المفاهيم الغربية العنصرية فى البعث القومى ! . .

وكانت الثغرة الثانية ، التى تم منها الاختراق . . هى التجزئة والإقليمية التى أقامها الاستعمار على أنقاض صيغة الخلافة الإسلامية ، التى وحدت دار الإسلام رغم تمايز الأقاليم والولايات ، فلم تقم الحدود والسدود والجنسيات أمام أبناء الأمة الواحدة ، بقومياتها المتعددة . . وفى حقبة الاستقلال تجسدت هذه التجزئة الاستعمارية وتكرست فى «الدول القطرية» ، التى واصلت تقطيع أوصال الأمة ودار الإسلام . .

وكان الأكراد ضحية لهذه التجزئة . . إذ على الرغم من تواصل المنطقة التى تعيش فيها أغلبيتهم ، جزأتهم هذه الإقليمية والقطرية ، فألحقوا بخمس من الدول القطرية ، الأمر الذى أذكى المشاعر القومية فى صفوفهم ، وفتح الباب للمفاهيم القومية الوافدة ، ذات الطابع العرقى والعنصرى . .

ومن هاتين الثغرتين ، اللتين صنعتهما القوى المعادية لوحدة الأمة ، تسللت هذه القوى لتواصل مخطط التفتيت والتفكيك!! . .

لكن التجارب المريرة التى مرت بها علاقات الأكراد بالعرب ، فى ظل هذه العقود الأخيرة ، جعلت الحلول الانفصالية والنزعات

التفتيتية تتراجع ، ويفتضح أصحابها . . كما جعلت الكثيرين من الذين خاضوا الكثير من هذه التجارب ، يدركون أنهم ضحايا الاختراقات . وليسوا بأى حال من الأحوال محل عطف قوى التدخل والاختراق . . فارتفعت أصوات العقلاء بالتأكيد على الروابط التوحيدية ، ورفض نزعات التعصب والانفصال . . وقرأنا لزعيم الحزب الكردستانى ، «مسعود البرزانى» ، قوله : «نحن لسنا دعاة انفصال عن العراق ، ولسنا أعداء للأمة العربية . . ولسنا مناهضين للوحدة العربية . . إننا لم نعارض أبداً فى دخول العراق فى أى مشروعات وحدوية عربية . . وأثناء مباحثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق سنة ١٩٦٤ م أرسلنا رسلاً ورسائل إلى الزعيم الراحل جمال عبد الناصر تؤكد تأييدنا لمشروع الوحدة ، وثقتنا المطلقة بعدالته ونزاهته ، وإيماننا بأن المطالب الكردية المشروعة ستجد لديه ، وستجد فى أى مشروع عربى وحدوى مكانها اللائق . لقد كان كل كردى يؤمن بأن عبد الناصر متعاطف مع آماله المشروعة .

وللأمانة ، لا يمكن أن أنفى أنه توجد بين بعض الأكراد الجماعات عنصرية شوفينية معادية للعرب والعروبة ولكن هذه العناصر محدودة جداً من الناحية العددية ، وليس لها نفوذ معنوى أو سياسى .

إن الجماهير العربية تعرضت وتتعرض لنفس القهر والاضطهاد . . وإن اختلفت الدرجة . . إننا ، كحركة تحرر وطنى ، نؤمن إيماناً راسخاً أن موقعنا الطبيعى والتاريخى هو مع الأمة العربية . .[1] » .

ونفس توجه البرزانى ، نجده فى قطاع «اليسار الكردى» . .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

فيتحدث الدكتور محمد محمود عبد الرحمن - الذي مرت سيرته السياسية بالحزب الشيوعي ، فحزب الشعب الديمقراطي الكردستاني - فيقول : «إن العلاقة بين الأكراد والعرب هي علاقة تاريخية خاصة ، تضرب بجذورها إلى أكثر من ١٣٠٠ سنة من التاريخ المشترك ، وإن القوميتين العربية والكردية هما قوميتان متآخيتان ، وإن طلائعهما التقدمية تشتركان في معاداة الإمبريالية ، وتهدفان إلى توحيد أجزائها المتناثرة ، وتقفان مع حركات التحرر العالمية في خندق واحد . . أجل ، يجمعنا التراث المشترك في الدين والتاريخ والجوار الجغرافي . . وأقصد الدين كطريقة للحياة وكنظرة كونية ، وليس فقط كعبادة وطقوس . . ويجمعنا التطلع للمستقبل المتحرر من الظلم والاستغلال والتخلف والتبعية . ومن هنا كان توحدنا مع عبد الناصر ، فقد كان يشعر بنا وبهمومنا المشروعة ، التي لم ير فيها تناقضاً مع الآمال القومية العربية .

إن الأرضية الشعبية الكردية العريضة مؤيدة للعرب ومتعاطفة مع كل قضاياهم ، من فلسطين إلى الوحدة العربية ؛ وذلك بسبب الروابط التاريخية والروحية العميقة . .»[1] .

أما الدكتور محمود عثمان - وهو مثقف كردي . . وعضو قيادي في الحزب الاشتراكي الكردستاني - فإنه يقول : «نحن الأكراد شعب أصيل ، يرجع تاريخه إلى ٢٧٠٠ سنة إلى الوراء ؛ يرجع أصله إلى جنوب القوقاز الجبلية ، ذات الأصول الآرية ، ولغته هندو أوروبية ، من عائلة اللغات الفارسية . . منذ أتى العرب المسلمون إلى وادي الرافدين ، منذ أربعة عشر قرناً ، اختلط تاريخنا وحضارتنا

(١) المرجع السابق . ص ٢٦٦ .

بتـاريخـهم وحـضـارتهم ، وربط بيننا وإياهم الدين الإسـلامى . . فمـشكلتنا المعـاصرة بدأت مع المشكلات المعاصـرة لكل شعوب وقوميات المنطقة فى أواخر عهد الإمبراطورية العثمانية . . وأنا شخصياً ، ومعظم القيادات الكردية ، نؤمن بصراحة بأن تطورنا السياسى والاقتصادى والثقافى يمكن أن يتم بشكل أفضل فى إطار وحدة وطنية عراقية . . وفى إطار وحدة الأمة العربية . .(1)» .

تلك هى شهادات الوعى الكردى بمخاطر المخطط التفتيتى ، الذى لعب بمطالبهم المشروعة ، ضد التمييز القومى ، لعدة عقود . . وأخطر ما فى هذه الشهادات . . هو قول الدكتور محمود عثمان : «إن مشكلتنا المعاصرة بدأت مع المشكلات المعاصرة لكل شعوب وقوميات المنطقة ، فى أواخر عهد الإمبراطورية العثمانية . .» .

فقبل التدخل الاستعمارى ، والتجزئة التى مزق بها الاستعمار جسد العالم العربى والإسلامى ، كانت الصيغة الإسلامية «أمية إسلامية» تتنوع فيها وتتمايز الشعوب والقبائل والأقوام والملل والنحل والمذاهب فى إطار وحدة الأمة والحضارة والدار . .

وبالتجزئة الاستعمارية ، والفكر القومى العنصرى - ذى المفاهيم الغربية الوافدة- فتح الغرب الاستعمارى الثغرات ، وظل يسعى من خلالها لتفتيت العرب والمسلمين ، ليلحقهم ، كشراذم وذرات ، وكهوامش وتوابع بنموذجة الحضارى . .

فالصيغة الإسلامية للتعايش - التنوع فى إطار الوحدة - هى طوق النجاة للجميع ! . .

(1) المرجع السابق . ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

تم أقدم اختراق غربي لقطاع من طائفة نصرانية تعيش في الوطن العربي.. لا لأن الموارنة كاثوليك، يتبعون مذهباً نصرانياً قيادته غربية، فهناك كاثوليك عرب ظلت علاقاتهم بالكاثوليكية الغربية عند حدود «اللاهوت»، ولم تصبح لهم «مشكلة سياسية»، كما حدث مع المارونيين..

صحيح أن الارتباط المذهبي الماروني بالمذهب الغربي للنصرانية قديم.. فالقديس «مارمارون»(حوالي ٤١٠ م) ظل أتباعه على المذهب الغربي في قانون الإيمان، منذ الانقسام الذي حدث في «مجمع خلقيدونية» سنة ٤٥١ م، لتمسكهم بمقررات ذلك المجمع!.. لكن «المارونية السياسية» نشأت عندما اتخذ الغرب شريحة من المارونيين موطئ قدم لمشروعه الاستعماري في الشرق العربي، وكان المذهب الديني مجرد ثغرة للاختراق!.. وذلك أن المذهب الديني، في ديانة تدع ما لقيصر وما لله لله، وتجعل مهمتها خلاص الروح، ورسالة كنيستها مملكة السماء، لا الدولة والأرض والسياسة والعمران الدنيوي.. إن المذهب الديني، في ديانة كهذه، لا يثمر، بالطبيعة «مارونية سياسية»، تتعلق بالنموذج الحضاري الغربي، والثقافة الفرنسية، وتعمل على الانسلاخ من العروبة القومية والإسلام الحضاري!..

ففي سنة ١٢٥٠م - إبان الحروب الصليبية - جاء الإمبراطور

الفرنسي لويس التاسع (١٢١٤ - ١٢٧٠ م) إلى الشرق العربي غازياً ، فاستقبله في «عكا» وفد ماروني ، وطلب منه الحماية- في وقت كانت كثير من الطوائف المسيحية تقف مع المسلمين في خندق واحد ضد الغزاة الفرنجة الصليبيين - ويومئذ سلّم الملك الفرنسي الوفد الماروني رسالة - مؤرخة في ٢١ مايو سنة ١٢٥٠ م - يقول فيها «نحن مقتنعون بأن هذه الأمة - (الجماعة) - التي تعرف باسم القديس مارون ، هي جزء من الأمة الفرنسية»[١] !! . .

فهنا ، وفي ظل غزو استعماري ، تتعلق جماعة عربية ، كاثوليكية كالفرنسيين ، بالحماية الاستعمارية للفرنسيين ؛ ويعتبرهم الغزاة جزءاً منهم ، وامتداداً لهم في قلب الوطن العربي . .

ومن هذه الثغرة ، وإبان المد الاستعماري الغربي الحديث ، تواصل الاختراق . . فمدارس البعثة اليسوعية الفرنسية في لبنان - في القرن التاسع عشر - تعتبر التعليم الذي تقدمه «فتحا بواسطة اللغة» . . والقنصل الفرنسي يعتبره «سيطرة على الشعب ، تخلق جيشاً مارونياً يتفانى في خدمة فرنسا»! . . فيكتب «بول موفلان» Paul Muvelin أحد كبار اليسوعيين : «إن تعليم الناس لغتنا - (الفرنسية) - لا يعني مجرد أن تألف ألسنتهم وآذانهم الصوت الفرنسي ، بل إنه يعني فتح عقولهم وقلوبهم على الأفكار وعلى العواطف الفرنسية ، حتى نجعل منهم فرنسيين من زاوية ما . . إن هذه السياسة تؤدي إلى فتح بلد بواسطة اللغة . .»!!

---

(١) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٧٤ - وهو ينقل عن «وثائق الباب العالي» المجلد الثالث - ص ١٠٠ .

وفى مذكرة كتبها القنصل الفرنسى ببيروت - فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٤١ م - إلى سكرتير الدولة ، بوزارة الخارجية الفرنسية - فى باريس - يقول : «إنه حين تنشر فى هذا البلد ، بواسطة اللغة الفرنسية ، التعليم ، والأخلاق ، والفنون المفيدة ، والزراعة ، فإننا سوف نسيطر على الشعب ، وسيكون لفرنسا هنا ، وفى كل وقت ، جيش متفان» !!

وفى مذكرة أخرى - تاريخها ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٧ م - كتب القنصل «دى لاتينو» De Lattenaud إلى وزارة الخارجية الفرنسية ، يطالب بإنشاء المزيد من المدارس اليسوعية المجانية ، لأنها السبيل إلى «جعل البربرية العربية - (؟!) - تنحنى لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية الفرنسية»[1] !!

ومن ثغرات هذا الاختراق ، قامت «المارونية السياسية» ، كانسلاخ عن العروبة القومية والإسلام الحضارى ، والتحاق بالنموذج الحضارى الغربى والثقافة الفرنسية ، وموطئ قدم للمشروع الفرنسى فى الوطن العربى . .

وللمنافسة الاستعمارية بين الدول الغربية ، رمت إنجلترا شباكها على الدروز ، فى مواجهة المارونيين ! . . فكانت هذه المنافسات الاستعمارية وراء الكثير من مآسى الشقاق الدينى والصراعات الطائفية الدامية التى حدثت بين الطوائف . . فبعد تاريخ إسلامى

(١) المرجع السابق . ص ٧٣ - وهو ينقل عن «مراسلات القناصل السياسية - وزارة الخارجية الفرنسية - مجلد ٢» .

طويل ، عاشت فيه الملل والنحل والطوائف والمذاهب والأقوام «لبنات» - متنوعة- فى جدار الأمة الواحدة . . نجح الاختراق الاستعمارى فى أن يحول بعضها ، أو شرائح من بعضها ، إلى وقود للفتن والصراعات ، عندما استدرجها بعيداً عن الوحدة الإسلامية الجامعة والانتماء العربى الواحد . . وفى مذكرة وجهتها المفوضية البريطانية فى بيروت إلى وزارة الخارجية البريطانية - فى لندن- بتاريخ ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٤م- نقرأ :

«إن كل مذبحة حدثت أيام العثمانيين كانت لها خلفيات سياسية ، ولو جزئياً ، فقد حاول الروس مساندة الأرمن واستغلالهم ضد السلطة ، فأثاروا حفيظة الأتراك ، وساندت فرنسا الموارنة ، فكان موقفها عاملاً فى وقوع مجازر سنة ١٨٦٠م . . ومشاكل الأشوريين فى العراق ، التى وصلت إلى ذروتها بمذبحة سنة ١٩٣٣م ، كانت - إلى حد ما - نتيجة تعنت الأشوريين- وخاصة مارشمعون- لقد اتخذ الأشوريون هذا الموقف معتقدين أننا فى النهاية سننجر إلى التدخل وإلى بسط حمايتنا عليهم . وفى فلسطين حدثت مجزرة الخليل سنة ١٩٢٩ م وغيرها من المجازر بسبب العامل الخارجى . إن الاضطهاد الدموى غريب عن تاريخ السوريين . من الممكن أن يحصل هنا بعض التمييز والاضطهاد . . إلا أن المجازر الكبرى كانت دائماً حصيلة التدخل الخارجى[1] . .»!

ففى ظل النموذج الإسلامى ، للتعددية فى إطار الوحدة ، لم

---

(١) المرجع السابق . ص ٧٩ ، ٨٠ - وهو ينقل عن دوثائق الخارجية البريطانية F. o. 226. 256 ».

يكن هناك اضطهاد دموى - باعتراف المذكرة البريطانية- بينما قاد الاختراق الاستعمارى لثغرات الطوائف أبناء هذه الطوائف إلى «المجازر الكبرى»! . . فلقد كانت الثمرة المرة لهذا الاختراق هى محاولات الانسلاخ عن الجسم الطبيعى للأمة ، والالتحاق بالغرب ، وزرع الغرب فى قلب وطن الأمة وحضارتها . . وكان لابد لهذا العمل القسرى وغير الطبيعى من مشكلات وتوترات بلغت درجة المجازر التى سالت فيها الدماء . . ويعبر المفكر والسياسى المارونى «جوزيف مغيزل» عن توجه المارونيين غرباً ، وإعجابهم بكل ما هو غربى ، فيقول : « إن المأزق السياسى والحضارى للموارنة هو أنهم لا يرون العرب المسلمين داخل وخارج لبنان على صورة الغرب الكاثوليكى . وما لم يتم مسخ العرب المسلمين ليطابقوا صورة الغرب المسيحى فهم غير مقبولين تماماً من الموارنة . . ولما كان مسخ العرب المسلمين على هذه الصورة يكاد يكون مستحيلاً ، فسيظل الموارنة على موقفهم . . وهذا المأزق الحضارى السياسى تحول خلال الحرب الأهلية إلى مأزق سياسى عسكرى . . وقد حاولوا الخروج من المأزق بالتحالف مع الشيطان ، أى إسرائيل»[1] ! . .

فالانسلاخ عن القومية العربية والحضارة الإسلامية ، يجعل الطائفة المنسلخة تتحول عن موقعها الطبيعى ودورها التاريخى -دور «اللبنة» فى الكيان الموحد للأمة - إلى دور «ثغرة الاختراق» ، الذى يفضى إلى كارثة لا تقف آثارها عند طرف واحد من الأطراف ! . .

---

(١) (الملل والنحل والأعراق) ص ٦٤١ ، ٦٤٢ .

تواصلت محاولات الاختراق والتفتيت .. وتعددت سبله ووسائله .. فالأقباط الأرثوذكس، يمثلون أقدم وأعرق الكنائس الوطنية الشرقية .. وهم أكثر الطوائف النصرانية العربية عدداً .. ولقد بدأت محاولات الاختراق الاستعمارية بهم إبان الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) .. ثم استمرت عبر البعثات التبشيرية الغربية، التى بدأت بمحاولات تغريب الكنيسة القبطية، واقتطاع بعض من أبنائها لحساب المذاهب النصرانية الغربية، وذلك تمهيداً لإلحاق الأقباط بالنموذج الغربى، وسلخهم عن وحدة الأمة العربية والحضارة الإسلامية .. وواصل الاستعمار الإنجليزى المحاولات، فى مختلف الميادين إبان احتلاله لمصر (١٨٨٢ - ١٩٥٦م) ..

وفى المخطط الصهيونى رأينا التركيز على تفتيت مصر، من ثغرة الطائفية الدينية، رغم التسليم بتلاحم شعبها وطنياً وقومياً وحضارياً .. ففى مشروع «برنارد لويس» حديث عن «تقسيم مصر إلى دولتين على الأقل، واحدة إسلامية والثانية قبطية» .. وفى (استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات) حديث عن «أن رؤية دولة قبطية - مسيحية فى صعيد مصر إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية - مصرية، لا سلطة مركزية، كما هو الوضع الآن، هى مفتاح هذا التطور التاريخى .. فمتى تفتت مصر تفتت الباقون ..» !

ولم تقف هذه المخططات عند «الفعل الخارجي» . . وإنما رأيناها تنجح - مع الأسف الشديد - في استدراج نفر من الأقباط الذين هاجروا إلى المهاجر الغربية - وخاصة في أمريكا وكندا وأستراليا - فتحولوا - بوعي أو بغير وعي - إلى جزء من هذا المخطط التفتيتي .

ورأينا مراكز أبحاث ودراسات تحترف تسليط كل الأضواء على «هموم الأقليات»- وكأنما هذه الهموم خاصة بهذه «الأقليات» ! . . وتحترف تزييف أرقام أعداد هذه «الأقليات» ، لتعطي للقارئ انطباعات تزيف واقع الأمة ، وتوحي بأن هذا الواقع هو عبارة عن «أقليات» و «أغلبيات» لا يربطها رباط الأمة الواحدة! . . ولتوهم ؛ بتضخيم حجم «الأقليات» وحجم «همومها» بأن العقبات أمام وحدة الأمة كأداء ، تستعصي على الاجتياز ! . . ففي الأسفار والكتب والنشرات المنتظمة ، التي يصدرها أحد هذه «المراكز البحثية» نشاهد نموذجاً لتزييف أرقام «الأقليات» - كل «الأقليات» - لا يمكن أن يخدم إلا مقاصد التفتيت . .

فالدكتور سعد الدين إبراهيم ، نشر في سنة ١٩٨٨م كتابه (المجتمع والدولة في الوطن العربي) . . وقدم فيه إحصاءات عن «الأقليات» ، فلما نشر كتابه الضخم (الملل والنحل والأعراق : هموم الأقليات في الوطن العربي) - أوائل التسعينات . . أي بعد عام أو عامين من كتابه الأول - قفزت تقديراته لأعداد هذه «الأقليات» قفزات لا يتصورها عقل ولا يقول بها إحصاء! . . وذلك رغم أن مصادر إحصاءاته في كتابه الجديد ليس فيها مصدر واحد جديدا! . . بل المدهش أن أحدث مصادره في هذه التقديرات

الجزافية الجديدة- تقديرات أوائل التسعينيات- مصدر منشور سنة ١٩٨٠ م - ولا تسل عن زمن إحصاءات هذا الذى نشر سنة ١٩٨٠م . . واعتمد لتقديرات سنة ١٩٩٠ م - ؟!! . .

ويكفى لإدراك مدى القفزات الجزافية ، التى تضخم حجم «الأقليات» فى الوطن العربى مقارنة الأرقام التى نشرها الدكتور سعد أواخر سنة ١٩٨٨م بتلك التى قال إنها «تقديراته» أوائل التسعينيات . . ثم مقارنتها بمصدر ثقة ، هو (أطلس معلومات العالم العربى) - لمؤلفين مسيحيين : لبنانى ، هو رفيق البستانى . . وفرنسى ، هو فيليب فارج - والمنشور سنة ١٩٩٤م - يكفى أن نقارن هذه الأرقام لندرك توظيف المبالغات والتزييف لتضخيم «عقبات» وحدة الأمة وتوسيع ثغراتها ، وخدمة مخططات التفتيت - بصرف النظر عن النوايا والمقاصد ، التى لا يعلم حقيقتها إلا الله- .

* فالمسيحيون العرب - بكل طوائفهم - عند الدكتور سعد الدين إبراهيم - فى سنة ١٩٨٨ م - تعدادهم ٧,٨٠٠,٠٠٠ وهو يقفز بهم أوائل التسعينيات - أى بعد عام أو عامين - إلى ١٢,٠٠٠,٠٠٠ ؟! . . بينما نجدهم فى (أطلس معلومات العالم العربى) - فى سنة ١٩٩٤ م - ٧,٠٠٠,٠٠٠ فقط ؟ ! . .

* والأقليات اللغوية (القومية) فى الوطن العربى ، هى عند الدكتور سعد - فى سنة ١٩٨٨م - ٢٠,٠٥٠,٠٠٠ وهو يقفز بها أوائل التسعينيات - أى بعد عام أو عامين - إلى ٢٩,٧٢٥,٠٠٠؟! . .

(١) ندوة الموقف الإسرائيلى من الجماعات الإثنية والطائفية فى العالم العربى) ص ٦ - ترجمة الدار العربية للدراسات والنشر . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م .

بينما نجدها فى (أطلس معلومات العالم العربى) - فى سنة ١٩٩٤م - ٢٣,٧٠٠,٠٠٠ فقط لا غير ؟ ! . .

والمتتبع لهذه الفوضى الإحصائية ، يجد الدكتور سعد الدين إبراهيم يضيف لحجم «الأقليات» فى الوطن العربى - وفق تقديراته الجزافية - ١٤,٠٥٦,٠٠٠ . . أى قرابة الـ ٢٩٪ من مجموعها ؟! . .[1]

* ويزيد هذا الأمر خطراً ، إذا نظرنا إلى هذا «الحجم» الذى تعطيه هذه «التقديرات» لهذه «الأقليات» ، فى ضوء «الحقائق» التى تقول :

ا - إن مقابلة «الزنجية» ، مثلاً ، بالعروبة والعربية فيها وهم كبير . . فالعروبة جامع موحّد ، بينما «الزنجية» ، هى على الأقل تسعة عشر مجموعة عرقية! . . والعربية جامع موحّد . . بينما الزنوج - فى جنوب السودان - يتحدثون حوالى مائة لهجة! . . وأغلب الزنوج يتحدثون العربية ، أو إحدى لهجاتها ، أو يستخدمون فى لهجاتهم الكثير من الكلمات العربية . .

ب - وأن مقابلة «الوثنية الزنجية» بـ «الإسلام» ، فيها وهم كبير . . فالإسلام جامع موحّد . . بينما الوثنية الزنجية أخلاط متعددة من العقائد الأرواحية . . كما أن نسبة الذين اعتنقوا الإسلام من الزنوج تزيد على ١٨٪ ونسبة المسيحيين منهم تبلغ ١٥٪ ! . .

---

(١) قارن (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٢١ ، ٢٤ ، ٢٧ . و (الملل والنحل والأعراق) ص ٦٢ ، ٧٤ ، ٨٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م ورفيق البستانى ، فيليب فارج (أطلس معلومات العالم العربى) ص ٢٨ - ٣٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م .

جـ - وأن مقابلة الأمازيغية بالعربية فيها خداع كبير . . فالبربرية لهجات عديدة ، وشفاهية غير مكتوبة . . وليس فى البربر من لا يتكلم العربية على نحو ما . . فهى لغة الدين الذى به يتدينون ، والقرآن الذى له يقدسون ، ولآياته يحفظون وبه يصلون . . ومنهم العلماء والأدباء والشعراء والمثقفون فى العربية . . بل وأبرز دعاة التعريب! . .

د - وأن مقابلة الكردية بالعربية فيها خداع كبير . . فالكردية ، وإن كتبت ، فأبجديتها عربية . . وليس بين الأكراد من لا يتحدث بالعربية ، لأنها لغة القرآن والدين والتراث الذى به يؤمنون وإليه ينتمون . . ولأعلامهم وعلمائهم فى تراث العربية الإسهامات والإبداعات . .

هـ - وأن مقابلة النصرانية بالإسلام فيها وهم كبير . فخلاف الإسلام مع النصرانية ليس فى الشريعة ، التى تمثل مرجعية الدولة والحضارة والقومية والاجتماع والتراث وسمات الاندماج وتبلور الأمة ووحدتها . . لأن النصرانية لا تقدم بديلاً للإسلام فى مرجعية النظم والتدابير الدنيوية وصياغة القسمات الموحدة للأمة ، والجامعة لقوميتها ، والمكونة لهويتها . . وليس بين الإسلام والنصرانية خلاف فى منظومة القيم الحاكمة لأخلاق الأمة وسلوك المؤمنين بهما . . وليس بين الإسلام والنصرانية خلاف فى سمات وقسمات القومية العربية . . وخلاف الشريعتين لا يتعدى جزئية اللاهوت الخاصة بالتثليث ، وهى التى لا دخل لها فى مكونات

(١) المرجع السابق ، ص ٧ - ١٠ .

الاجتماع المشترك بين أبناء الأمة العربية ، المتدينين بالنصرانية والإسلام .

وهكذا . . إذا نظرنا إلى «حجم وعدد» «الأقليات» ، في ضوء هذه «الحقائق» ، ظهر «وزن التميز» الذي تمثله «الفروق» في مقابل «الجوامع الموحدة» التي تجمع الأمة وتوحدها ، وتميزها كأمة واحدة . .

فنحن أمام «محيط» يحتضن مجموعة من «الجزر» ، يحنو عليها ، ويوسع لها صدره . . ووجودها فيه ، وحفاظه عليها ، شواهد على أن وحدته إنما تغتني بوجودها المتعدد فيه! . . فهو التنوع في إطار الوحدة ، والتمايز في إطار الجامع . . وليس التشظي ولا التشرذم ولا التفكيك! . .

وبهذا المنهج ، لا تصبح للأرقام - قلَّت أو كثرت - تأثيرات على وحدة الأمة . . لكن تزييفها ، بالمبالغة فيها ، له انطباعات سلبية ، إذا هو وُظِّف في إطار مخطط التفتيت ! . .

والأمر الذي يرجح أننا بإزاء توظيف «للتزييف الإحصائي» في خدمة مخطط التفتيت والتفكيك ، هو «الحلول» التي يقترحها هذا التوجه «للمشكلة» التي اخترعها . . فهذا التوجه لا يكتفي بالتشرذم والتجزئة ، التي أقامت الحدود والسدود والجنسيات بين وطن العروبة ، فجعلته اثنتين وعشرين دولة وجنسية . . وإنما يزيد الطين بلة عندما يقترح «الفيدرالية» حلاً ينظم العلاقات بين الطوائف والملل والنحل والأعراق والمذاهب والأقوام في الوطن

العربى! . . ويزعم «أن التطبيق المرن والمبدع لـ «الفيدرالية» يمكن أن يخلق نظاماً وظيفياً حديثاً مكافئاً لـ «نظام الملة» الذى كان معمولاً به فى الإمبراطورية الإسلامية السالفة»[1]!

وهو يتجاهل - بهذه المقارنة الغريبة - أن «نظام الملل» كان يمثل تعددية غير سياسية . . تعددية فى الشرائع الدينية الخاصة - بحكم طبيعة النصرانية - بأحوال الأسرة والشعائر العبادية والاعتقاد الدينى . . دون أن تؤثر فى السمات الموحدة للدولة والأمة . . بينما هذه «الفيدرالية» ، التى يقترحها هذا التوجه التفكيكى هى تعددية سياسية فى «الأرض» - الوطن - و «البشر» - الشعب - تضاف للتشرذم الذى أحدثته «سيكس - بيكو» سنة ١٩١٦ م . . وليس هذا مجرد استنتاج منا لمقتضيات ومقدمات هذا التوجه . . فصاحبه هو الذى يقول : «إن المجتمعات التى تتسم بالتعددية الإثنية فى الوقت الحالى ، ينبغى أن تكون متعددة من الناحية السياسية أيضاً»[2]! . .

فمقاصد هذا التوجه ، هى المزيد من التجزئة السياسية للوطن العربى ، والتشرذم للأمة الواحدة ، انطلاقاً من تعظيم حجم «الأقليات» ، بتزييف أعدادها . . ومن تسليط كل الأضواء على «همومها» ، بعد عزلها عن «هموم الأمة» . . لتبدو أمتنا - كما صورتها المخططات الخارجية المعادية - «برج ورقى» مصطنع . .

---

(١) د . سعد الدين إبراهيم (التعددية الإثنية فى الوطن العربى) ص ٢١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م .

(٢) المرجع السابق . ص ٢٢ .

و «فسيفسائيات متجاورة» . . و «مجتمعات موزاييك» ، لا تجمعها جوامع الأمة الواحدة ! . .

* * *

وإذا كان عقلاء الدنيا يتحدثون عن أمتنا كحضارة واحدة ، استوعبت وهضمت ووحدت المواريث الحضارية السابقة . . وإذا كان ، حتى «كرومر» ، الذى درس الشخصية المصرية ، قد حكم باستحالة التمييز فيها بين المسيحي والمسلم ، لأنهم شرقيون ، ينتمون إلى منظومة قيمية واحدة ، وحضارة واحدة . . فإن بعض الذين «رشحت » على توجهاتهم الفكرية مخططات التفتيت ، قد أصاب «الغبش» وعيهم ، فتحدثوا عن أننا أبناء «الرقائق الحضارية»- وليس الحضارة الواحدة . . وأصحاب «ثقافة موزايك» - وليس الثقافة الواحدة- فتحدث أحدهم - ملخصاً «جهوده الفكرية» فى هذا الموضوع - فقال : «من وجهة نظر حضارية ، مصر لها ساقان ، هما إسلام مصرى ، ومسيحية مصرية ، والساقان ترتكزان على رقائق من الحضارات السابقة . . والمصرى ، من ناحية الشكل : سُنّى الوجه ، شيعى الدماغ ، قبطى القلب ، فرعونى العظام . .»[1]!! . .

وهو تصور يصل فى التفكيك إلى حد «العبثية» ، وذلك عندما لا يقف عند تفكيك الحضارة ، والشخصية القومية ، ووحدة

(١) د . ميلاد حنا . نشرة (المجتمع المدنى - العدد ٥٠ فبراير سنة ١٩٩٦ م - ص ٣٢ - وهى نشرة يصدرها «مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية» والذى يرأسه الدكتور سعد الدين إبراهيم ! . .

المنظومة القيمية . . وإنما يتجاوز ذلك إلى تفكيك المسيحية وتفكيك الإسلام . . ناهيك عن الصورة الهزلية التى جعل فيها المصرى- الذى ضرب الناس به المثل فى وحدة الشخصية والهوية- «كرنفالاً» عجيباً!! . .

إن هذه التوجهات ، التى تركز الأضواء على «الفروق» لا «الجوامع» ، والتى لا ترى «الفروق» فى إطار «الجوامع» ، والتى تحترف إثارة «الأقليات» ، فى ظل مخططات التفتيت الخارجية المعلنة - حتى ولو حسنت نوايا أصحابها- إنما تخدم هذه المخططات التفتيتية المعلنة . . ولنتذكر كلمات «موشيه شاريت» - التى سبق وأوردناها فى سياقها - والتى يقول فيها : «ويعتبر مجرد تحريك الأقليات عملاً إيجابياً ، لما قد ينجم عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر . . وهو يذكى النار فى مشاعر الأقليات فى المنطقة ، ويوجهها نحو المطالبة بالاستقلال»[1] !

ولنتذكر أن الذين تحدثوا عنا «كمجتمعات فسيفسائية . . وكبرج ورقى . . وكمجتمعات الموزايك » . . كانوا الصهاينة[2] . . قبل أن يبتلع هذا «الطعم السام» نفر من مثقفينا ! . . فحرام ، وغير لائق ، ولا معقول أن يتبنى البعض منا ما نصت عليه «استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات» !! . .

لكن . . ولحسن الحظ ، فإن هذه الأصوات ، التى استدرجت إلى خدمة المخطط التفكيكى . . أو التى رشحت على توجهات أصحابها

(١) (الملل والنحل والأعراق) ص ٧٤٧ .

(٢) المرجع السابق . ص ٧٤٣ . و (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ١٤٠ .

مقولات هذا المخطط . . قد ظلت «الشذوذ . . والنشاز» الذى يثبت أن جمهور أبناء الملل والأقوام والمذاهب ، على وعى بحقائق الجوامع المُوحّدة للأمة ، ومخاطر المخططات المحدقة بهذه الوحدة . .

وإذا كان اللورد «كرومر» (١٨٤١ - ١٩١٧م) قد أدرك أن القبطى والمسلم كلاهما شرقى ، قد وحدتهما الحضارة الإسلامية» من قمة الرأس إلى أخمص القدم فى المسلك الأخلاقى واللغة والروح»[1] . . فإن «ميشيل عفلق» (١٣٢٨ - ١٤٠٩ هـ ١٩١٠ - ١٩٨٩ م) قد رأى هذا الجامع الحضارى عاماً فى كل الأمة العربية . . فكتب يقول : «لا يوجد عربى غير مسلم . . فالإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا ، وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون . . إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . . وبهذا المعنى لا يوجد عربى غير مسلم ، إذا كان هذا العربى صادق العروبة ، وإذا كان متجرداً من الأهواء ، ومتجرداً من المصالح الذاتية . . وإن المسيحيين العرب ، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم ، سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شىء فى عروبتهم . . ولئن كان عجبى شديداً للمسلم الذى لا يحب العرب ، فعجبى أشد للعربى الذى لا يحب الإسلام»[2] ! . .

(١) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٩٣ .

(٢) (الكتابات السياسية الكاملة) جـ ٣ ص ٣٣ ، ٢٦٩ ، جـ ٥ ص ٦٨ ، طبعة بغداد سنة ١٩٨٧ م وسنة ١٩٨٨ م .

والزعيم الوطنى القبطى البارز «مكرم عبيد» (١٣٠٧ - ١٣٨٠ هـ ١٨٨٩ - ١٩٦١م) هو القائل : «نحن مسلمون وطناً . . ونصارى ديناً . . اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك ، وللوطن أنصاراً . واللهم اجعلنا نحن نصارى لك ، وللوطن مسلمين»(١) .

وبابا الأقباط الأرثوذكس «شنودة الثالث» هو القائل - فى تصريحاته المعلنة- : «إن الأقباط ، فى ظلٍ حكم الشريعة الإسلامية ، يكونون أسعد حالاً وأكثر أمنا ، ولقد كانوا فى الماضى ، حينما كان حكم الشريعة هو السائد . . نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» . . إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن ، وتطبقها علينا . ونحن ليس عندنا ما فى الإسلام من قوانين مفصلة ، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة ، ولا نرضى بقوانين الإسلام»(٢) ؟!

والقس الكاثوليكى «حنا قلته» يقول : «أوافق تماماً على أن أكون مصرياً . . مسيحياً ، تحت حضارة إسلامية . . بل أنا مسلم ثقافة مائة فى المائة . . أنا عضو فى الحضارة الإسلامية كما تعلمتها فى الجامعة المصرية . . تعلَّمت أن النبى ﷺ ، سمح لمسيحيى اليمن أن يصلوا صلاة الفصح فى مسجد المدينة . . فإذا كانت الحضارة الإسلامية بهذه الصورة . . التى تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير

---

(١) د . محمد عمارة (الإسلام والسياسة : الرد على شبهات العلمانيين) ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ طبعة القاهرة سنة ١٤١٣ هـ سنة ١٩٩٢م . وصحيفة (الوفد) - القاهرية- عدد ٢١ يناير سنة ١٩٩٣ .

(٢) صحيفة (الأهرام) - المصرية- عدد ٦ مارس سنة ١٩٨٥ م .

المسيحى . . والتى تعلى من قيمة الإنسان كخليفة عن الله فى الأرض . . فكلنا مسلمون حضارة وثقافة . . وإنه ليشرفنى ، وأفتخر أننى مسيحى عربى ، أعيش فى حضارة إسلامية . . وفى بلد إسلامى . . وأساهم وأبنى ، مع جميع المواطنين ، هذه الحضارة الرائعة . .»[1] ! . .

والدكتور غالى شكرى - فى لحظة صدق مع الحقيقة - هو القائل : «إن الحضارة الإسلامية هى الانتماء الأساسى لأقباط مصر . . وعلى الشباب القبطى أن يدرك جيداً أن هذه الحضارة العربية الإسلامية هى حضارته الأساسية . . إنها الانتماء الأساسى لكافة المواطنين . صحيح أن لدينا حضارات عديدة من الفرعونية إلى اليوم ، ولكن الحضارة العربية الإسلامية قد ورثت كل ما سبقها من حضارات ، وأصبحت هى الانتماء الأساسى ، والذى بدونه يصبح المواطن فى ضياع . . إننا ننتمى - كعرب من مصر - إلى الإسلام الحضارى والثقافى ، وبدون هذا الانتماء نصبح فى ضياع مطلق . . وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقاً مع العقيدة الدينية . بالعكس . . لماذا ؟ لأن الإسلام وحّد العرب ، وكان عاملاً توحيدياً للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد . .»[2] .

هكذا رأينا ونرى الوعى الحقيقى بوحدة الأمة . . والرفض

(١) (الإسلام والسياسة : الرد على شبهات العلمانيين) ص ٢٠٥ - وهذه العبارات وردت فى ندوة نظمتها « اللجنة المصرية للعدالة والسلام» عن «أثر البعد الدينى فى الاشتراك فى العمل العام» بفندق الحرية -بمصر الجديدة- فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٩١م.

(٢) صحيفة (الوفد) - المصرية- عدد ٢٨ رجب سنة ١٤١٣ هـ ٢١ يناير سنة ١٩٩٣ م .

الحاسم لمخططات التفتيت الطائفي - الخارجي منها . . وما تسلل فرشح على بعض التوجهات - .

بل لقد تصدت أصوات ومواقف العقلاء، لهذا الإلحاح المشبوه على «فكرة الأقليات . . وهمومها» . . فقال «الأنباموسى» - أسقف الشباب بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية : «نحن كأقباط ، لا نشعر أننا أقلية ، لأنه ليس بيننا وبين إخواننا المسلمين فرق عرقى «إثنى» ، لأننا مصريون ، وأتجاسر وأقول : كلنا أقباط ، بمعنى أنه يجرى فينا دم واحد من أيام الفراعنة ، ووحدة المسألة العرقية تجعلنا متحدين مهما اختلفنا . هناك طبعاً التمايز الدينى ، لكن يظل الأقوى والأوضح الوحدة العرقية . ولا نشعر نحن الأقباط بشعور الأقلية البغيض الذى يعانى منه غيرنا ، نحن أقلية عددية فقط ، ولكن هذا لا يجعلنا نشعر أن هناك شرخاً بيننا وبين إخواننا المسلمين . . من جهة الهوية العربية ، نحن مصريون عرقاً ، ولكن الثقافة الإسلامية هى السائدة الآن ، كانت الثقافة القبطية هى السائدة قبل دخول الإسلام ، وأى قبطى يحمل فى الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية ، يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة ، بل هى جزء من مكوناته . . نحن نحيا العربية لأنها هويتنا الثقافية ، ومقتنعون بالطبع بأن فكرة العروبة فكرة سياسية واقتصادية وثقافية ، بالإضافة لوحدة المصير المشترك . . والعلاقة بين الجذور والعروبة علاقة تناصرية ، هذه دوائر متداخلة . . تاريخنا أفضل من حاضرنا ، حينما نذكر الأقباط أيام الدولة العثمانية كانوا مع إخوانهم

المصريين لهم دور مشترك في عزل الوالى العثماني ومجيء محمد على ، وكان جرجس الجوهرى أحد قادة الأقباط ، وكذلك إبراهيم الجوهرى أخوه ، وكثير من الأقباط عملوا وشاركوا بشكل واضح في الحياة السياسية في عهد محمد على . . والأقباط دورهم بعد الثورة- سنة ١٩٥٢ م - تقلّص كجزء من التقلص الشامل في المشاركة بمصر ، كانت هناك سلبية شاملة . . وأنا أعتقد أن الأقباط جزء هام من نسيج الحياة المصرية ، لقد انغمس المسيحيون في الحياة العملية . . فهم أطباء وصيادلة ومهندسون ، وغيرها من المهن ، ونسبتهم أيضاً في رجال الأعمال مرتفعة أكثر من نسبتهم العددية في مصر[1] . .

نحن نرفض المسيحية السياسية . . لأن المسيح قال : «مملكتى ليست بالعالم» . . ولو حدثت المسيحية السياسية تصبح انتكاسة على المسيحية ، كما حدث في العصور الوسطى أيام كان البابوات هم الذين يدشنون الإمبراطور وينصبونه . هذه هي المسيحية

(١) إذا كانت النسبة العددية لأقباط مصر هي - عبر كل الإحصاءات السكانية ، منذ الاحتلال الانجليزى في القرن التاسع عشر- تقف حول ٥,٥٪ من السكان ، فإن نسبتهم في الملكية للثروة والاقتصاد - باعتراف من يحترفون الحديث عن «هموم الأقليات» تبلغ ٢٥٪ من ثروة مصر ومن المهن المتميزة - كالأطباء والصيادلة والمهندسين- وهم لا يعانون ما تعانيه الأغلبية المسلمة من هموم ومشكلات الأمية والإسكان والبطالة والفقر . . بل إن عدد الكنائس - بالنسبة لتعدادهم - قريب من عدد المساجد عند المسلمين- وذلك فضلا عن حرية منبر الكنيسة ، وتأميم منبر المسجد ونهوض الكنائس بأدوار اجتماعية وثقافية وتعليمية وسياحية ، وتجريد المساجد من كل ذلك ، وبقاء الأوقاف الكنسية ، في حين جردت المساجد من كل ذلك ! .

السياسية التى نرفضها ، لأنها تختلف عن المسيحية . . مصر دائماً دولة مسلمة ومتدينة ولكن بدون تطرف . ولو عشنا كمسلمين وأقباط وفى إطار الصحوة الدينية المصحوبة بصحوة وطنية فسيكون المستقبل أكثر من مشرق .

نحن فى مصر نسيج واحد ، وسعداء بذلك ، وهذه حماية استراتيجية لنا كأقباط . ونحن لسنا لبنان ، ويستحيل أن «تتلبنن» مصر . وتقسيم مصر فكرة مستحيلة ، وغير مسيحية ، ولو فكرنا فى ذلك معناه أننا نجهز أنفسنا للإبادة . وبعد ، كيف أقيم فى أسيوط وأترك أديرة وادى النطرون؟ أو العكس؟! . . هذه فكرة غبية . هذه فكرة صهيونية من أجل تفتيت مصر . وعندما شاهدت ما يحدث فى العراق ، قلت : نجح الصهاينة ، وأصبح العراق ثلاث دول . . فهذه الفكرة الصهيونية ليست قبطية . .»[1] ! .

وغير هذه الشهادة التاريخية ، التى تمثل وثيقة من وثائق الوعى بوحدة الأمة ، فى مواجهة مخططات التفتيت . . هناك شهادة المهندس «سمير مرقص» - مدير مركز البحوث بأسقفية الخدمات العامة والاجتماعية ، بالكنيسة المصرية الأرثوذكسية - والتى يقول فيها : «إن الأقباط ، بالمقاييس العلمية ، ليسوا أقلية . . حتى فى إطار الدولة العثمانية لم يورد الأقباط كأقلية ، ولم تنطبق عليهم قضية «الملة» ، مقارنة بكل الأقليات فى الدول التابعة حينذاك للدولة العثمانية . . والخبرة التاريخية للأقباط تجعلهم أيضاً ليسوا

---

(١) (الملل والنحل والأعراق) ص ٥٢٩ - ٥٣٤ .

بأقلية دينية . . لعدم انفصالهم عن مجمل الحياة العامة والمجتمع ، ولأنهم ينخرطون فى الحياة اليومية بالمنطق الوطنى العام ؛ وليس بالموقف الدينى . والكنيسة القبطية لم تخلق تاريخياً فكرة الجماعة الخاصة . . وتنظيماتها كنسيّة للرعاية الروحية ، وليست للحياة العامة . . فأزمة الأقباط ، إذن هى أزمة المجتمع المصرى ، التى تنعكس على كل من المسلم والقبطى على السواء[1] » .

فالهموم واحدة . . والمأزق واحد . . والأمة واحدة . . والتاريخ الإسلامى - فى علاقات الملل والطوائف - كان أفضل من الصيغ والمفاهيم والممارسات التى جاءت مع الاستعمار ، والاختراق الثقافى الغربى - كما أشارت هذه الشهادات ! . .

والمحامى القبطى «نبيل منير حبيب» يضيف : «لا توجد حضارة قبطية ، لأن للحضارة - إن شئنا أن ندركها - مظهرين : (مادى ومعنوى) ، والذى يبقى دائماً هو المعنوى (أدب - تاريخ - فلسفة) ، وهنا أستطيع القول : إنه ليس هناك أدب قبطى ، ولا فلسفة قبطية ، ولا نظم سياسية قبطية ، هناك تأثير روحانى ، يونانى ، أما المسألة القبطية فهى خليط من ذلك ، إضافة إلى تنصيرها العادات الفرعونية . مثلاً : ٢٧ كيهك - وهو الذى يقابل ٧ يناير - هو عيد ميلاد «حورس» ؛ والمسيح لم يولد فى ذلك التاريخ . كذلك ، فشكل «عمارة الكنيسة المصرية» هو شكل المعبد الفرعونى ، ومن ثم

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢٥ .

فليس هناك حضارة قبطية . والمسيحية المصرية مسيحية محلية ، على عكس الإسلام المصرى فلديه بُعْد عالمى . .[1]»! .

أما المفكر اليسارى القبطى «أبو سيف يوسف» - صاحب كتاب (الأقباط والقومية العربية) - فإنه يقول : «لقد ساد علاقات الأقباط بالعرب ، والمسلمين بالمسيحيين الاحترام والتعاون ، حتى إن الوعظ فى الكنيسة تحول من اللغة اليونانية (التى ظلت تستعمل كلغة للدولة أيضاً من عهد البطالسة إلى عهد البيزنطيين ، أى حوالى ألف سنة) إلى اللغة العربية . . فالجماعة الإثنية - بمصر - واحدة ، تتكلم اللغة نفسها ، ولها ثقافة عامة مشتركة . . وتشكل فى النهاية ، كياناً اجتماعياً واحداً . .»[2] .

فجوامع الوحدة فى العربية ، كلغة ، وفى الإسلام كحضارة . . لم تكن بدائل لجوامع قبطية وطنية . . وإنما كانت بدائل شرقية لقهر استعمارى بيزنطى . . فالعربية حلت محل اللغة اليونانية- وليس محل لغة وطنية مصرية - . . والحضارة العربية الإسلامية ، حلت محل الحضارة الإغريقية - الرومانية ، لأنه لم تكن هناك حضارة قبطية وطنية . . فالشرق كان مقهوراً - سياسياً وحضارياً وثقافياً ولغوياً واقتصاديا ، بل ودينياً - إلى أن تحرر بالإسلام ، الذى بنى حضارة ومدنية شرقية ، أبدعها كل أبنائه ، على اختلاف الملل والأقوام . . فهى جوامع وحدتهم كأمة ، وهى ميراثهم الحلال . . وبعبارة القانونى البارز الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا

(١) المرجع السابق . ص ٥٣٨ .

(٢) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٩١ - ٩٣ .

(١٣١٣-١٣٩١ هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١ م) : «فهذه المدنية الإسلامية هى ميراث حلال لكل المقيمين فى الشرق ، فتاريخ الجميع مشترك ، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية»[1] ! . .

تلك هى شهادات عقلاء الأمة فى مواجهة مخططات التفتيت والتفكيك ، التى سلكت سبلها إلى هذه المقاصد عبر تنوع الملل واختلاف المذاهب وتعدد الأقوام . .

* * *

لكن . . . هل يعنى هذا أن تطبيقات وممارسات حضارتنا الإسلامية للتعددية قد خلت من السلبيات؟ وأنها قد برئت من التمييز بين الأغلبية وبين «الأقليات»؟ . . وأنه لم تحدث فيها اضطهادات وتوترات مع أبناء الملل . . وبين المذاهب؟؟ . .

إننا يجب أن نميز ، فى هذا الموضوع ، بين «المثال» وبين «الواقع» . . فالمبادئ الدينية ، والصيغ الفكرية ، والنظريات الفلسفية هى «مُثُل» . . والمثل ، عادة ، تستعصى على كامل التحقق والتطبيق ، وإلا فرغت حياة الإنسان من «المثال» ، وأصبحت جحيماً لا يطاق ، أو مواتا لا أمل فيها ولا رجاء . . فوجود «المثال» ، الذى لم يطبق بعد ، هو الذى يبعث الحيوية والأمل والرجاء فى حياة الإنسان ، بوجود «مهام» فى «جدول أعمال» هذه الحياة ، تتطلب السعى لتحقيقها ، والاستباق على طريق الخيرات فيها . .

---

(١) (دكتور عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية) ص ١١٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

فالتطبيق و «الواقع» لا يمكن أن يرقى إلى درجة «المثال» ، ولا أن يستنفد كل «المثال»! . . تلك قاعدة عامة فى كل الديانات والفلسفات ، والحضارات ، على مر التاريخ .

لكن . . بقدر ما يكون «المثال» سامياً ، وبقدر ما يكون ديناً ، تتجاوز مقاصد تطبيقاته وإقامته المنفعة الدنيوية ، إلى حيث تصبح هذه الإقامة «للمثال الدينى» قربة إلى الله ، وشرطاً لسعادة الدار الآخرة ، التى هى خير وأبقى ، بقدر ما يعين ذلك على أن يكون التطبيق و «الواقع» أقرب إلى السمو ، وأكثر تعلقاً «بالمثال» . .

ولقد كان هذا هو حال التعددية وتطبيقاتها فى حضارة الإسلام . .

فلقد خلت مسيرة حضارتنا ، تقريباً من الاضطهادات الراجعة إلى اختلاف اللغات والأقوام والأعراق ، لأن الإسلام قد جعل عصبية الدم والعرق والنسب جاهلية ، دعا رسوله ﷺ ، إلى تجاوزها ، فقال : «دعوها فإنها مُنْتِنَة»[1] ! .

وكانت الاضطهادات بسبب اختلاف الملل والشرائع الدينية ، مقصورة على أسباب أخرى ، ليس من بينها على الإطلاق قصور «المثال» أو المبادئ عن تحقيق أوسع الحريات أمام أبناء الملل والشرائع الدينية المختلفة . .

فما عرف عن اضطهاد بعض اليهود والنصارى ، لفترات محدودة ، وفى بعض الدول ، فى تاريخنا الحضارى ، كان فى

---

(١) رواه البخارى والترمذى .

أحيان كثيرة ردود أفعال لتدخلات خارجية واستعمارية - صليبية . . وتترية . . وإمبريالية - استخدمت نفراً من أبناء هذه الملل ضد أمن الوطن والدولة والأمة والحضارة ، إبان الصراعات المسلحة والاجتياحات الشرسة ؛ التي شنها أعداء هذه الأمة ضد الإسلام ، والتي هددت وجود أمته وحضارته . .

وعلى سبيل المثال . . فإبان الحملات الصليبية على بلادنا سعت النصرانية الغربية إلى التحالف مع التتر الوثنيين ضد العرب والمسلمين ؛ وأرسل البابا «إينوسنت الرابع» (١٢٤٣ - ١٢٧٠ م) عام ١٢٤٥ م بعثة إلى عاصمة الدولة التترية الشرقية - «قراقورم» - لهذا الغرض - رأسها مندوب البابا «جون ده بيانى كاربرينى» - . . وجاءت بعثة تترية من «خاقان» التتر «جغطاى» إلى الملك لويس التاسع (١٢١٤ - ١٢٧٠) أثناء إقامته بقبرص ؛ وهو في طريقه لغزو الشام ومصر ، شتاء (١٢٤٨ - ١٢٤٩ م) جاءت لمواصلة مفاوضات التحالف ضد العرب والمسلمين . . ولما عادت البعثة التترية إلى بلادها ، من قبرص ، صحبتها بعثة فرنسية صليبية لاستكمال المفاوضات . . واستمرت مساعي التحالف حتى بعد هزيمة لويس التاسع ، فسافرت إلى «قراقورم» من حصن عكا الصليبي بعثة فرنسية ، رأسها رجل الدين «جليوم ردبروك» ، واستمرت تفاوض في بلاط «الخان» التترى «منكوقا آن» ستة أشهر ! وأخيراً نجح الصليبيون في إقامة هذا التحالف ، فحول التتار حملتهم إلى بلاد الإسلام ، بعد أن كان التخطيط أن تتجه إلى أوربا ! . .

ولقد استعان الصليبيون ، على عقد هذا التحالف ، بطائفة النصارى النساطرة ، الذين كان لهم وجود ونفوذ في بلاد التتار ، واستغلوا ، في ذلك ، إحدى زوجات «هولاكو» - دوقوز خاتون - وكانت نصرانية الدين ، نسطورية المذهب! . . بل إن قائد جيش «هولاكو» - الذى دمر بغداد (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) والشام وزحف نحو مصر - والذى هزم فى «عين جالوت» (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠م) كان نصرانياً نسطورياً ، هو «كَتْبُغا»[1] ! . .

ولقد كان لهذا البُعْد النصرانى فى هذه الحملات ، التى هددت وجود الأمة والحضارة ، انعكاساته لدى الطوائف النصرانية فى المدن التى اجتاحها التتار ، فحدثت خيانات - وخاصة من الطوائف ذات المذاهب الغربية - بل وكشفت هذه الطوائف عن خيانتها ، فأعلنت تحديها للوطن والدولة والأمة فى ساعة العسرة ولحظات الشدة . .

ففى دمشق - بعد أن اجتاحها التتار - وكما يقول المقريزى (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ ١٣٦٥ - ١٤٤١ م) - عُمدة مؤرخى العصر - :

«واستطال النصارى بدمشق على المسلمين ، وأحضروا فرماناً من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم : فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان ، ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات ، وصبّوه على أبواب المساجد . وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم ، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب ، وصاروا يمرون به فى

(١) د . محمد عمارة (معارك العرب ضد الغزاة) ص ١١٦ - ١١٨ . طبعة دمشق ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م .

الشوارع إلى كنيسة مريم ، ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم ، وقالوا جهراً : «ظهر الدين الصحيح دين المسيح» وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم ، فقلق المسلمون من ذلك ، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو - وهو كُتْبُغا - فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظم قدْر قسوس النصارى ، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم . .»[1]!

وكان طبيعياً أن تكون لهذه الخيانات ، التى جاءت للوطن والدولة والأمة والحضارة ، فى ساعات العسرة ولحظات الحرج والشدة- والتى أعلنتها الطوائف النصرانية ذات المذاهب الغربية فى الأساس - كان طبيعياً أن تكون لها ردود أفعال - بعد تحرير هذه المدن من الاجتياح التترى- . . فبعد هزيمة التتر - بقيادة «كتبغا» - فى «عين جالوت» ، وانحسار موجة اجتياحهم للشام ، وعندما وصل إلى أهل دمشق كتاب السلطان المظفر قطز (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠م) «يبشر الناس بفتح الله له ، وخذلانه التتر سر الناس سروراً كثيراً ، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوها ، وأخربوا ما قدروا على تخريبه . .»[2] .

فكان الاجتياح الخارجى ، وكان الاختراق لأمن الوطن والأمة والحضارة- من ثغرات الملل والطوائف - هو «الفعل» الذى ولد ردود أفعال من التوتر والاضطهاد على جبهة العلاقات بين المسلمين وقطاعات من أبناء الملل والطوائف غير المسلمة ، فى السنوات التى شهدت واعقبت هذا الاجتياح وذلك الاختراق ! . .

---

(١) (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك) الجزء الأول - القسم الثانى - ص ٤٢٥ ، ٤٣٦ ، تحقيق : د . محمد مصطفى زيادة . طبعة القاهرة ١٩٥٦م .

(٢) المصدر السابق . جـ ١ - القسم الثانى - ص ٤٣٢ .

أما على جبهة الحكام، الذين كان ظلمهم لبعض أبناء الملل والطوائف غير المسلمة، جزءاً من الظلم الذى عم الرعية كلها؛ مسلمين وغير مسلمين، فإن المتوكل العباسى (٢٣٣ - ٢٤٧ هـ - ٨٤٧ - ٨٦١ م) مثال نموذجى لهذا النوع من الحكام.. فاضطهاده للنصارى كان جزءاً من الاضطهاد الذى أصاب الشيعة والمعتزلة؛ وأغلب تيارات الفكر فى ذلك التاريخ.. لقد أسقط شهادة المعتزلة أمام القضاء، ونفاهم إلى جزيرة «دهلك» جنوبى البحر الأحمر - ! وحرمهم الكثير من الحقوق الاقتصادية ومنع عنهم العطاء.. وكما هدم بعض مقابر النصارى، فلقد صنع نفس الشىء بمقبرة الإمام الحسين، فلقد سواها بالأرض، ثم حرثت أرضها وزرعت!.. والذين يقارنون مراسيم اضطهاده للمعتزلة يجدون شبهاً كبيراً بينها وبين مراسيم اضطهاده للنصارى[1]!..

وكانت مظالم بعض الخلفاء والسلاطين، تسلك إلى رقاب الرعية، أحياناً كثيرة طريقاً خبيثاً!.. وذلك عندما تلجأ الدولة فى الجبايات والإتاوات والمغارم إلى وزراء وجباة وصيارف من غير المسلمين، يملأون خزائن الدولة بإفقار الرعية، وتزيد ثرواتهم أيضاً، فيتطاولون على الناس، فتأتى ردود الأفعال ضد المظالم لتنال من

---

(١) القاضى عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٠٢ : ٣٠٣ تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس ١٩٧٢ م والمقريزى (الخطط) جـ ٣ ص ٢٧١، ٣٩١. طبعة دار التحرير. القاهرة.

الطوائف والملل التى إليها ينتسبون! . . بل وكثيراً ما كانت الدولة تسترضى الجماهير الغاضبة بمصادرة هؤلاء الجباة الظلمة ؛ وأحياناً بقتلهم ، فتهدئ من ثورة الثائرين ، وتكسب الأموال والثروات فى جميع الأحوال ! . .

ومن نماذج استبداد بعض اليهود والنصارى بأغلبية الرعية ، وما أحدثه ذلك من ردود أفعال ، عهد «العزيز بالله» الفاطمى (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ ٩٧٥ - ٩٩٦م) وما تلاه من مراسيم ضد أهل الكتاب فى عهد ابنه وخليفته الحاكم بأمر الله (٣٧٥- ٤١١ هـ ٩٨٥ - ١٠٢١ م) فزوجة العزيز بالله كانت نصرانية ملكانية - أى من الطوائف النصرانية التابعة للمذاهب الغربية- . . وكانت لهذه الزوجة ، ولابنتها «سيدة الملك» ! نفوذ واسع فى شئون الدولة . . وكان لها أخوان من رجال الدين النصرانى - «أرسانيوس» : مطران الملكانية فى القاهرة ، ثم بطرك الإسكندرية - و «أريسطيس» : بطرك الملكانية فى القدس- . .

وفى هذا المناخ المنحاز لغير المسلمين ، تولى وزارة مصر النصرانى عيسى بن نسطورس . . ووزارة الشام اليهودى إبراهيم القزاز (منشا)! . . فعمت مظالمهما جماهير المسلمين ؛ وظهر تحيزهما لأبناء دينهما ، وظهرت ردود الأفعال ضد هذه المظالم وذلك الانحياز . . وكما يقول المقريزى : «فاعتز بهما النصارى واليهود ؛ وآذوا المسلمين . فعمد أهل مصر وكتبوا قصة جعلوها فى يد صورة

- (تمثال) - عملوها من قراطيس ، فيها : بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك- (الخليفة العزيز) -! ألا كشفت ظلامتى؟! . وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز ، والرقعة بيدها ، فلما رآها أمر بأخذها ، فإذا الصورة - (التمثال)- من قراطيس - (ورق) - فعلم ما أُريد بذلك ، فقبض عليهما ، وأخذ من عيسى بن نسطورس ثلثمائة ألف دينار ، ومن اليهودى شيئاً كثيراً»[1] !

وفى هذا المناخ ، الذى تستبد فيه الأقلية بالأغلبية . . نرى الشعراء يدلون بدلوهم فى علاقات الملل والطوائف فيصورون الدولة وكأنها تُحكم «بالثالوث» ! يعقوب بن كلس - وأصله يهودى - هو الأب - والعزيز - الخليفة - هو الابن ! . . والوزير الفضل هو روح القدس!! . . يصوغ الشاعر الدمشقى الحسن بشر ، ذلك شعراً يخاطب به المسلم ، فيقول ساخراً :

تَنصَّر ، فالتنصّر دين حق عليه زمـاننا هذا يدلّ
وقل بثـلاثة عـزوا وجلّوا وعطّل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل !

أما نقد سيطرة اليهود ، فيعبر عنها الشاعر المصرى الحسن بن خاقان ، فيقول :

---

(١) (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) ص ٢٩٧ . تحقيق : د. جمال الدين الشيال . طبعة القاهرة ١٩٦٧م . وابن الأثير (البداية والنهاية) جـ ١١ ص ٣٢٠ .

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهوّدوا ، فقد تهوّد الفلك[1] !

وفي نقد الترف والاستبداد ، اللذين تمتع بهما هؤلاء النفر من النصارى واليهود ، يقول الشاعر ابن الخلال :

إذا حكم النصارى في الفروج وغالوا في البغال وفي السروج
وذلّت دولة الإسلام طرا وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج[2] !

فالقضية لم تكن تناقضاً بين الإسلام وبين الملل الأخرى ، ولا عداء من المسلمين لأبناء هذه الملل ، ولا ضيق صدر بالتعددية والاختلاف في الشرائع الدينية ، وإنما كانت ، في الجوهر والأساس ، تناقضاً بين أغلبية الأمة المظلومة ، الباحثة عن العدل ، والتي يمارس الظلم فيها ولها وضدها نفر من أبناء الملل غير الإسلامية ، اختارهم حكام وولاة ظلمة ، لتكون مغايرتهم الدينية للأغلبية عاملاً على قسوة قلوبهم وغلظة معاملاتهم مع هذه الأغلبية ! . .

ويشهد على هذه الحقيقة ، أن بعضاً من هؤلاء الكتاب والجباة والصيارفة قد أراد - بإيعاز من الدولة - أن يستر مظالمه ويغلف

---

(١) آدم متز (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ ١ ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ . ترجمة : د . محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة بيروت ١٩٦٧م .
(٢) (خطط المقريزي) جـ ٢ ص ١٢٣ .

جبروته بالإسلام ، فأعلن اعتناقه لدين الأغلبية- أملاً فى تهدئة ثائرة المظلومين من جماهير المسلمين - . . لكن ذلك لم يجلب إليه عطف المسلمين ، الذين رأوا فى هذا «الإسلام» حيلة لجواز الظلم ، بل للإمعان فيه! . . فلم تجز عليهم هذه الحيل ، لأن القضية بالنسبة إليهم كانت العدل المفقود والمنشود ، وليست زيادة تعداد المسلمين آحادا من الناس ! . .

ويحكى المقريزى - فى التأريخ لسنة (٦٨٢ هـ - ١٢٨٣م) - موقف جمهور المسلمين من اعتناق بعض الكتاب والجباة النصارى الإسلام . . ذلك الإسلام الذى لم يترك أثراً يخفف من تسلطهم وتجبرهم ومظالمهم ، بل لقد ازدادوا معه ظلماً وعتواً ، وتجوا ، بإعلانه ، من القتل والمصادرات ! . . يحكى المقريزى ذلك ، فيقول : لقد «زاد تسلطهم بعد إسلامهم ، وأظهروا من التجبر ما كانت تمنعهم نصرانيتهم من إظهاره ! ، فكتب أحد الشعراء إلى الأمير بيدر النائب يقول :

أسلم الكافرون بالسيف قهرا   وإذا ما خَلَوْا فهم مجرمونا
سلموا من رواح مال وروح   فهم سالمون ، لا مسلمونا[1] !»

فهو «إسلام» يفرون به من الجزاء الذى استحقوه على مظالمهم - المصادرة للمال الذى جمعوه ، والقتل جزاء على ما اقترفت أيديهم فى حق الناس- . . وبعبارة الشاعر : «رواح المال والروح» ! . .

(١) المصدر السابق : جـ ٣ ص ٥٤٥ - ٥٤٧ .

فالقضية - بعبارة المقريزى - كانت «التسلط والتجبر» من قِبَل هؤلاء الجباة ، ولم تكن نصرانيتهم أو يهوديتهم بحال من الأحوال ! . .

وإذا جاز للبعض أن يتهم الشعر والشعراء بالمبالغات . . فإن كلمات العالم الألمانى الحجة «آدم متز» (١٨٦٩ - ١٩١٧ م) تعبر عن هذه السيطرة وهذا الاستبداد ، من أهل الكتاب بجمهور المسلمين ، فتقول : «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون فى بلاد الإسلام»[١] ! ثم يشير إلى دور هذه السيطرة وذلك الاستبداد فى إحداث ردود الفعل بين الطوائف والملل ، فيقول «إن أكثر الفتن التى وقعت بين النصارى والمسلمين نشأت من تجبر المتصرفين الأقباط . .»[٢] !

وردود الأفعال هذه ، هى التى تمثلت فى مراسيم الحاكم بأمر الله الفاطمى ، الذى خلف أباه العزيز . . فأنزل بالنصارى واحدة من المحن القاسية التى مرت بهم . . ثم عاد فعفا عنهم ، وعوضهم عن المظالم التى أنزلها بهم . . وأخيراً راح ضحية الاستبداد الطائفى الملكانى بقصر الخلافة ، عندما ذهب إلى مثواه الأخير بمؤامرة من أخته «سيّدة الملك» !! . .

* * *

(١) (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) جـ ١ ص ١٠٥ .
(٢) المرجع السابق . جـ ١ ص ١١٢ .

وفى ضوء هذه الحقائق التاريخية ، نفهم التحليل الموضوعى الذى كتبه الباحث اللبنانى «جورج قرم» – والذى لا يمكن أن يكون متهماً ! – والذى يقيم فيه العلاقات بين المسلمين وأبناء الملل والطوائف غير المسلمة . . فيقول :

«ويلاحظ أن فترات التوتر أو الاضطهاد لغير المسلمين فى الحاضرة الإسلامية كانت قصيرة ، وكان يحكمها ثلاثة عوامل :

العامل الأول : هو مزاج الخلفاء الشخصى ، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا فى عهد المتوكل ، الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة . وفى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، الذى غالى فى التصرف معهم بشدة ! .

العامل الثانى : هو تردى الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواد المسلمين ، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المحتلين لمناصب إدارية عالية ، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التى وقعت فى عدد من الأمصار . أما العامل الثالث : فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلدان الإسلامية ، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة . . إن الحكام الأجانب – بمن فيهم الإنجليز – لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية فى أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب– وهذه ظاهرة نلاحظها فى سوريا أيضاً ، حيث أظهرت أبحاث «جب» و «بولياك»

كيف أن هيمنة أبناء الأقليات فى المجال الاقتصادى أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين فى دمشق ١٨٦٠ م ، وبين الموارنة والدروز فى جبال لبنان ١٨٤٠ م و ١٨٦٠ م . ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها فى أماكن عديدة ، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية - ولا سيما الأرمن - التى تعاونت مع الغازى . .

بل إنه كثيراً ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى ، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح ، سبباً فى نشوب قلاقل طائفية ، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين فى الابتزاز ، وفى مراعاتهم وتحيزهم ، إلى حد الصفاقة أحياناً ، لأبناء دينهم ، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة . .»[1] ! . .

أما ما اشتهر من مطاردة الدولة العباسية للزنادقة ، وخاصة على عهد المهدى العباسى (١٥٨ - ١٦٩ هـ ٧٧٥ - ٧٥٨ م) ، فإنه لم يكن اضطهاداً لديانات الفرس القديمة - فلقد عومل أهلها معاملة أهل الكتاب - ولا كان ضيق صدر بالتعددية فى الملل والشرائع - لأن هذه الزندقة - التى طاردتها الدولة - كانت ستاراً دينياً لمخططات شعوبية سياسية ، استهدفت الإسلام - وليست الحرية الدينية - واستهدفت عروبة الدولة ، وطمعت فى الثأر من الإسلام ودولته ، اللذين أذلا دولة الفرس ، وذهبا بعرش الأكاسرة

(١) (الملل والنحل والأعراق) ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ - وهو ينقل عن كتاب جورج قرم (تعدد الأديان ونظم الحكم : دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة) ص ٢١١ - ٢٢٤ . طبعة بيروت ١٩٧٩ - . .

القدماء . . فكان موقف المهدى العباسى - كموقف ابنه الرشيد (١٤٩ - ١٩٣ هـ ٧٦٦ - ٨٠٩ م) من البرامكة - دفاعاً مشروعاً عن الدولة وفكريتها وهويتها ، أكثر منه ضيق صدر بالتعددية فى الملل والمذاهب . . ويشهد على ذلك أن مطاردة الزندقة لم تؤد إلى أى تضييق على أى من أتباع الديانات والملل والمذاهب التى كانت قائمة فى ذلك التاريخ ! . .

أما الضيق بالمذاهب الفلسفية الوافدة - غنوصية حلولية كانت . . أو مشائية يونانية - فلقد كان من ثمرات عصور التراجع الحضارى والجمود الفكرى ، التى ضاقت حتى بالعقلانية الإسلامية المؤمنة وبالاجتهاد الإسلامى ! . . فكانت تراجعا عن الفهم الحقيقى «للمثال» الإسلامى فى التعددية والتنوع والاختلاف ، أدى إلى تراجع فى «التطبيق» لهذا المثال ! . .

وحتى فى تلك العصور ، ظلت التطبيقات الإسلامية للتعددية ، زاهية ومزدهرة ومتألقة ، إذا ما قورنت بنظائرها فى الحضارات غير الإسلامية . . فلقد كان ضيق الصدر عارضاً . . وموقوتاً . . تغالبه مبادئ الإسلام ، ومواريث الأمة فى تطبيقات التعددية والتنوع فى عصور الازدهار . . ويدعم هذه المغالبة أن «المثال» ، فى النموذج الحضارى الإسلامى ، هو «دين» ، ووضع إلهى ثابت ، وليس مجرد نسق فكرى - من التسامح . . أو حقوق الإنسان - يجوز تخطيه ، أو التنازل عنه ، أو تجاوزه بحال من الأحوال ! . .

وبعبارة «أرنولد» : فإنه من الحق أن نقول : إن غير المسلمين قد نعموا ، بوجه الإجمال ، في ظل الحكم الإسلامي ، بدرجة من التسامح لا نجد معادلاً لها في أوربا قبل الأزمنة الحديثة ، وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية ، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح . .»[1] .

تلك هي حقيقة العلاقة بين الملل والمذاهب والأقوام في حضارة الإسلام : إن على مستوى «المثال - النظري» ، أو على مستوى «الممارسة .. والتطبيق» ! .

(١) المرجع السابق ، ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ .

فارق بين « الأقلية العددية » وبين «الأقلية بالمعنى السياسى والاجتماعى والاقتصادى» . .

فالأقليات العددية ظواهر شائعة فى مختلف الشعوب والأمم والمجتمعات والدول والحضارات ، وهى - مع ذلك - جزء من النسيج الأصيل لهذه الشعوب والأمم ، ولا تعانى من أى لون من ألوان التمييز أو الظلم السياسى والاجتماعى والاقتصادى بسبب هذه القلة العددية . .

فالنوبيون ، فى مصر ، أقلية عددية ، لكن تميزهم - كنوبيين - لا يترتب عليه تمييز لهم فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد ، أو غير ذلك من الحقوق ، وأيضا الواجبات . .

ومثل ذلك المتدينون بالنصرانية من المصريين ، هم أقلية عددية ، لكن هذا التميز فى الاعتقاد الدينى لا يرتب أى تمييز ضدهم ، أو لحسابهم ، فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو تكافؤ الفرص أو الوجاهة والنفوذ . . بل إن فى داخل نصارى مصر أقليات عددية كذلك ، مثل الأدفنتست « - السبتيين - ، والبروتستانت - الإنجيليين - ، والكاثوليك . . الخ . . فهى أقليات عددية بالنسبة للأرثوذكس . . بل إن بعض هذه الأقليات النصرانية ترفض الكنيسة الأرثوذكسية الاعتراف بمسيحيتها! . . ومع ذلك ، فلا أثر لقلة العدد- بالنسبة لأى منها - على المساواة مع المصريين فى

السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وسائر الحقوق والواجبات . . فهذا لون من التمايز فى الاعتقاد الدينى لا يمنع هذه الأقليات العددية من أن تمثل خيوطا أصيلة فى النسيج الوطنى للشعب المصرى الواحد . .

وكذلك الحال فى داخل الأغلبية المصرية المسلمة ، فالحنابلة قلة قليلة ، ويليها فى العدد الأحناف ، وجمهور مصر المسلم يتوزعه المالكية والشوافع . . وهناك الصوفية الذين تزيد أعداد مريديهم عن الستة ملايين . . وبينهم - هم الآخرون - أقليات وأغلبيات عددية . . ومع ذلك كله ، فلا أثر لهذا التمايز فى التعداد على المساواة بين الجميع أمام القانون - الإسلامى منه والوضعى - فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والوجاهة الاجتماعية والنفوذ ، أى فى الحقوق والواجبات ، وتكافؤ الفرص بمختلف الميادين . .

وإذا كانت مشكلات الأقليات تشغل العالم ، بالحق حينا وبالباطل فى كثير من الأحايين . . وهى قد عادت - كما كانت إبان المد الاستعمارى الغربى فى القرن التاسع عشر - كلمة حق يراد بها باطل ، وبابا لتدخل قوى الهيمنة العظمى لاختراق السيادة الوطنية ، وتقليص مساحة سلطان الدول القومية على شعوبها وأوطانها ، فإن الحاجة ماسة لينشغل العقل الوطنى والعربى والإسلامى بتحديد معايير العلاقات الصحية والعادلة بين الأقليات والأغلبيات . .

ولعل المسلمين - قبل غيرهم - أن يكونوا أولى الناس بالاهتمام

بموضوع الأقليات . . فتعداد المسلمين فى العالم يبلغ ١,٣٨٤,٨٠٠ مليونا - أى أكثر من مليار وثلث المليار (٢٤٪ من سكان العالم) - ونحو ربع هؤلاء المسلمين يعيشون كأقليات - فى بلاد تزيد نسبة غير المسلمين فيها عن ٥٠٪ من سكانها - ف ٢٣٪ من المسلمين - أى ٣١٩ مليونا - يعيشون كأقليات . . بل إن الأقلية المسلمة فى الهند وحدها يبلغ تعدادها قرابة ١٥٠ مليونا ! . .

فالمسلمون يجب أن يكونوا أحرص الناس على تقرير العدل والإنصاف للأقليات ، لحجم الأقليات الإسلامية . . ولأن أوطانهم -قبل غيرها- هى المستهدفة بالتدخل والاختراق من ثغرات الأقليات ! . .

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - هو خالق الجميع . . ومن أسمائه «العدل» . . فإن العالم مدعو إلى الاتفاق على كلمة سواء فيما يتعلق بعلاقات الأقليات بالأغلبيات . . وذلك طلبا لتحقيق «العدل» بين الناس ، كل الناس ، لأن تحقيق هذا العدل- من المنظور الإسلامى - «فريضة» ، وليس مجرد «فضيلة» ، وهو كذلك حتى مع « الأعداء» ! ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ [المائدة : ٨] - . . فالعدل فريضة حتى مع «الأعداء» ، وذلك فضلا عن المواطنين الذين يمثلون خيوطا أصيلة فى النسيج الوطنى للشعب الواحد والأمة الواحدة . . وأيضا ، لأن العدل هو أقصر الطرق وأنجعها فى كشف وإفشال مخططات الأعداء الذين يريدون تحويل الأقليات

إلى ثغرات لاختراق الأمن الوطنى والقومى والحضارى ، بدلا أن تكون لبنات فى بناء هذا الأمن . .

وإذا كان العقل الوطنى والعربى والإسلامى مدعوا إلى إدارة حوار موضوعى حول «معايير العدل» ، التى يمكن اقتراحها على أنفسنا ، وعلى غيرنا من الأمم والشعوب ، بل والمنظمات الإقليمية والدولية . . فلعل فى مقدمة هذه « المعايير » :

أولا : استبعاد أية أوهام حول «الأقدمية الدينية» وما ترتبه من امتيازات للمتدينين بالدين الأقدم على أصحاب الديانات التالية فى الظهور . . فدين الله واحد ، والتعددية والتوالى إنما هو فى الشرائع والنبوات والرسالات ، التى هى معالم على طريق الوصول إلى الله . .

والمسلمون الفرس هم إيرانيون زرادشتيون أسلموا ، وليسوا طارئين ولا وافدين على إيران . . وكذلك المسلمون المصريون ، هم مصريون - أى أقباط - أسلموا ، وليسوا مهاجرين من شبه الجزيرة العربية إلى مصر - وإذا كانت هناك هجرات عربية مسلمة قد تمت إلى مصر ، فلقد تمت كذلك هجرات أرمنية ويونانية وقبرصية مسيحية إليها - . . ذلك أن أية أوهام حول الدين «الأصلى» والدين «الوافد» ستطال الجميع ، فالنصرانية فى مصر وافدة من فلسطين ، وكذلك حالها فى كل بلاد الدنيا حتى فى الفاتيكان ! . . واليهودية وافدة فى كل بلاد الدنيا - بل وحتى فى فلسطين - ! . .

فالمقصد والعدل هو تعايش الديانات والملل والشرائع - لأن هذا

التعايش هو السنة الإلهية فى التعددية - وليس انفراد دين من الأديان بأى مجتمع من المجتمعات .

وثانيا : أن المساواة فى حقوق المواطنة - السياسية والاجتماعية والاقتصادية - هى حق إلهى ، بحكم خلق الله للإنسان - من الأقليات أو من الأغلبيات كان هذا الإنسان - فهذه المساواة ليست مجرد حق من حقوق الإنسان ، تُمنح أو تُمنع تبعا لدرجة التسامح فى المجتمع والدولة ، وإنما هى «حق إلهى» ، بحكم الخلق والتكريم الإلهيين لمطلق بنى آدم وعموم الإنسان .

وثالثا : أن حق الأقليات الدينية - وكذلك الثقافية واللغوية - فى إقامة دينها ، والحفاظ على ثقافتها ، هو حق إلهى مقدس ، بحكم أن الله - سبحانه وتعالى - هو الذى أراد للخلق أن يكونوا وأن يظلوا مختلفين فى الشرائع والملل والديانات والمناهج واللغات ، ومن ثم فى الثقافات والقوميات . . فلا يجوز للأغلبيات الدينية أو الثقافية أو اللغوية أن تنتقص من حرية الاعتقاد الدينى وإقامة الشعائر الدينية والحفاظ على التمايزات اللغوية والثقافية لأية أقلية من الأقليات الدينية والثقافية . .

ورابعا : إذا كان من غير المتصور أن تفرض الأقلية الدينية على الأغلبية منهاجها ومذهبها فى «الدولة» ، كأن يسعى المسلمون فى فرنسا - مثلا - بملايينهم الخمسة - إلى فرض «الدولة الإسلامية وشريعتها» على الأغلبية العلمانية للشعب الفرنسى ، أو أن يمثلوا «فيتو» على التوجه العلمانى للأغلبية - وكذلك الحال مع المائة

والخمسين مليونا من المسلمين الهنود ، لأن «هوية الدولة» - بالمنطق الديمقراطى - هى خيار الأغلبية . . فإن هذه «الدولة» - التى تكون علمانية مع الأغلبية العلمانية ، وإسلامية مع الأغلبية الإسلامية - مطالبة بأن لا تجور هويتها - علمانية كانت أو إسلامية - على الحق الإلهى والمقدس للأقليات فى حرية الاعتقاد الدينى ، وإقامة شعائر وفرائض الدين .

فالأقليات الإسلامية : فى البلاد العلمانية : مطالبة باحترام القانون الوضعى ، بشرط أن يراعى هذا القانون حريتها فى الاعتقاد الإسلامى وإقامة الفرائض الإسلامية ، ومراعات الحلال والحرام الدينى فى أحوالها الشخصية وحياتها الأسرية ، وعدم التجريح لمقدساتها . .

والأقليات غير المسلمة ، فى المجتمعات ذات الأغلبيات المسلمة ، مطالبة باحترام قوانين وفقه معاملات الشريعة الإسلامية ، بشرط أن تحترم تقنينات هذه الشريعة - وأغلبها اجتهادات بشرية محكومة بالقيم الإيمانية المشتركة - أن تحترم حرية الاعتقاد الدينى ، وفرائض هذه الديانات فى الشئون الملية للأحوال الشخصية والأسرية ، والشعائر الدينية والعبادية . .

وبذلك ، لا تجور الأغلبيات على الأقليات فى شئون إقامة الدين ، والمساواة الكاملة أمام القانون . . ولا تتحول الأقليات إلى «فيتو» ضد الأغلبيات فى شئون «الدولة . . وهويتها» - علمانية كانت أو إسلامية هذه الهوية - . .

تلك رؤوس أقلام ، للمعايير العادلة والمتوازنة ، التى يمكن أن تحكم علاقات الأقليات بالأغلبيات ، حبذا لو أخذت طريقها إلى «جدول أعمال» جماعات من «الحكماء» فى بلادنا - وهم ليسوا قليلين والحمد لله - لنتفق فى هذه القضية - الحساسة .. والمتفجرة .. والتى غدت مثل « قميص عثمان » .. بل و «مسمار جحا !» .. لنتفق فيها - نحن أولا - على كلمة سواء ، ثم ندعو إليها الآخرين .

* * *

إن الشكل الجديد لنظام الهيمنة الغربية - والذى يسمونه «العولمة» يعمل على اختراق سيادتنا الوطنية والقومية والحضارية «بورقة» الأقليات .. وما التشريعات التى يسنها الكونجرس الأمريكى ، والتى يفرض فيها على بلادنا العقوبات بدعوى اضطهادها للمسيحيين إلا الشكل المعاصر للتدخلات الاستعمارية التى عرفتها بلادنا العربية والإسلامية - فى العهد العثمانى .. وفى ظل الاستعمار الإنجليزى والفرنسى - فى القرنين التاسع عشر والعشرين ..

إنهم يتحدثون عن تآكل السيادة الوطنية بسبب هذه «العولمة» .. لكنهم لايقولون لنا :

- لماذا يكون التآكل لسيادتنا الوطنية فقط .. ولا يصيب هذا التآكل سيادتهم الوطنية أيضا ؟! .. بل ولماذا يكون تآكل سيادتنا الوطنية لحساب تدخلهم فى شئوننا الداخلية ، الأمر الذى يضخم حجم سيادتهم الوطنية على حسابنا ؟ ! ..

إن اللعب «بورقة الأقليات» ليس بالأمر الجديد، فلأمتنا معه تاريخ! .. وليس لدى إسلامنا ولا واقعنا الحياتى ما نعتذر عنه فى علاقات الأغلبيات بالأقليات فى وطن العروبة وعالم الإسلام .. وعلى الذين يحترفون الحديث عن «هموم الأقليات» أن يعلموا أنه ليست هناك حياة إنسانية بلا هموم! .. وأن ما يسمى «بهموم الأقليات» إنما هى جزء من «هموم الأمة» - أغلبياتها وأقلياتها - .. وأن تاريخنا الوطنى والقومى والحضارى قد عرف منهجين فى التعامل مع هذه «الهموم»:

١ - منهج «انعزالى - طائفى» .. تضع فيه كل طائفة قائمة بهمومها ومطالبها .. وتطالب بها الآخرين!

٢ - ومنهج «وطنى وقومى وحضارى» .. تضع فيه الأمة - كل الأمة - قائمة بطموحاتها، التى تصوغها فى مشروع حضارى لإنهاض الأمة كلها .. وبقدر ما تتقدم الأمة على طريق تحقيق هذا المشروع الحضارى .. وبقدر ما تتوحد طبقاتها وجماعاتها فى مواجهة التدخل الأجنبى، بقدر ماتذوب الشوائب التى تعكر صفو العلاقات - أحيانا - بين هذه الطوائف والجماعات ..

إن خبرة مصر، فى هذه القضية، ثمينة تستحق الدرس والاستلهام .. فأمام محاولات الاستعمار الإنجليزى تفتيت الوحدة الوطنية من خلال «ورقة الأقباط»، برز المنهاج الانعزالى الطائفى، والمطالب الطائفية، التى عقدت لها مؤتمرات طائفية .. لكن المعدن الأصيل للوحدة الوطنية المصرية سرعان ما تقدم فى ترتيب أولويات

الجماعة الوطنية المصرية على المنهاج الانعزالى الطائفى . فانخرط الجميع فى الحركة الوطنية الساعية إلى إجلاء الإنجليز عن مصر، وخاض الأقباط مع المسلمين ملحمة ثورة سنة ١٩١٩ م ، واحتضن الهلال الصليب ، وزاملت الكنائس المساجد فى إشعال الثورة الوطنية ، وخطب القساوسة على منابر المساجد ، والشيوخ على منابر الكنائس . . وكان القس الوطنى «سرجيوس» المعبر عن هذا المنهاج الوطنى والقومى والحضارى ، عندما قال : **إذا كان الإنجليز يحتجون لاحتلالهم مصر بحماية الأقباط ، فليمت الأقباط وليحيا المسلمون !! . . وبهذا المنهاج - الذى عبر عنه «سرجيوس» العظيم ، كتبت الحياة الحرة للأقباط والمسلمين جميعاً ، وذابت الشوائب التى كانت تعكر صفو العلاقات قبل الثورة ، والتى كانت تضخمها المناهج الانعزالية والمطالب الطائفية . . ذابت هذه الشوائب عندما تلاحمت الصفوف حول المشروع الوطنى ، وفى بوتقة معركة التحرير . . الأمر الذى يجعل من دراسة خبرة مصر فى هذا الميدان فريضة وطنية واجبة الأداء ! . .**

* * *

وإذا كان الاستعمار - بأشكاله المختلفة ، ومقاصده التى لا تتغير - قد عاود - بعد مرحلة التحرر الوطنى - اللعب «بورقة الأقليات» - القومية منها والدينية - فى مرحلة «المد القومى» . . وهو اليوم يعاود اللعب بهذه الورقة ، فى مرحلة «المد الاسلامى» ، فإن المنهاج الوطنى والقومى والحضارى ، الذى يواجه هذه المحاولات

الاستعمارية كأمة، تتراص صفوفها وطبقاتها وطوائفها، حول مشروعها الحضارى النهضوى .. إن هذا المنهاج هو البوتقة التى تذوب فيها الحساسيات - الواقعية والمصطنعة- ويتراجع فيها سوء الظن، وتنصهر فى حرارتها المقدسة وتتلاحم الطبقات والطوائف والجماعات ..

وإن أمة تملك - على مر تاريخها الوطنى والقومى والحضارى - هذه الخبرات الغنية والنفيسة فى «صناعة الوحدة الوطنية»، كأمضى سلاح فى مواجهة الاختراق الاستعمارى لأمنها الوطنى والقومى والحضارى، حرام عليها أن تهمل هذه الخبرات فى مواجهة هذا الطور الجديد من الاختراق لأمتها باسم الأقليات ..

إننا نريد - ويجب - أن نكون خير خلف لخير سلف .. لا أن نكون كالسفهاء، الذين ورثوا كنوزا - فى الوحدة الوطنية .. ومواجهة التحديات- لايعرفون قدرها ولا قيمتها .. ولا يستفيدون منها فى مواجهة المحاولات المحمومة «للعولمة» اختراق أمننا الوطنى والقومى والحضارى من خلال الأقليات !

صدر من سلسلة (فى التنوير الأسلامى)

١ - الصحوة الإسلامية فى عيون غربية .	د . محمد عمارة
٢ - الغرب والاسلام .	د . محمد عمارة
٣ - ابو حيان التوحيدى .	د . محمد عمارة
٤ - دراسة قرآنية فى فقة التجدد الحضارى .	د . سيد دسوقى
٥ - ابن رشد بين الغرب والاسلام .	د . محمد عمارة
٦ - الانتماء الثقافى	د . محمد عمارة
٧ - تنصير العالم .	د . زينب عبد العزيز
٨ - التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات .	د . محمد عمارة
٩ - صراع القيم بين الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
١٠ - د . يوسف القرضاوى : المدرسة الفكرية . والمشروع الفكرى	د . محمد عمارة
١١ - تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم .	د . سيد دسوقى
١٢ - عندما دخلت مصر فى دين الله .	د . محمد عمارة
١٣ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية .	د . محمد عمارة
١٤ - المنهاج العقلى .	د . محمد عمارة
١٥ - النموذج الثقافى .	د . محمد عمارة
١٦ - منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق .	د . صلاح الصاوى
١٧ - تجديد الدنيا بتجديد الدين	د . محمد عمارة
١٨ - الثوابت والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة .	د . محمد عمارة
١٩ - نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم .	د . محمد عمارة
٢٠ - التقدم والاصلاح بالتنوير الغربى .	د . محمد عمارة
٢١ - فكر حركة الأستنارة . . وتناقضاته .	د . عبد الوهاب المسيرى
٢٢ - حرية التعبير فى الغرب من سلمان رشدى إلى روجية جارودى .	د . شريف عبد العظيم
٢٣ - أسلامية الصراع حول القدس وفلسطين .	د . محمد عمارة
٢٤ - الحضارات العالمية تدافع؟ . . أم صراع .	د . محمد عمارة
٢٥ - التنمية الأجتماعية بالغرب ؟ . . أم بالأسلام؟؟	د . عادل حسين
٢٦ - الحملة الفرنسية فى الميزان .	د . محمد عمارة
٢٧ - الإسلام فى عيون غربية . . دراسات سويسرية	ترجمة ا . ثابت عيد
٢٨ - الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة . . أم تفتيت وأختراق .	د . محمد عمارة
٢٩ - ميراث المرأة وقضية المساواة .	د . صلاح الدين سلطان .
٣٠ - نفقة المرأة وقضية المساواة .	د . صلاح الدين سلطان .

الفهرس